صندوق الموسيقى

نعومي شهاب ناي
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
ناي، نعومي شهاب
صندوق الموسيقى /نعومي شهاب ناي الرياض 1435

232 صفحة 14.5 ×21.5 سم
ردمك: 978-603-01619-4-2
1 - شعر غربي ـ السعودية أ. العنوان
ديوي 813,39531 رقم الايداع 1435/8416
الطبعة الأولى 1436/ 2015

أثر

المملكة العربية السعودية- الدمام
تلفون : 00966505774560
الموقع الالكتروني : www.darathar.net
Email: info@darathar.net

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا االكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات, واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

نعومي شهاب ناي

صندوق الموسيقى

انتخبَ القصائد و ترجمها:

أحمد العلي

مفتاح

1

مثل المفتاح المدسوس تحت سجادة باب البيت، حَفِيًّا بالأغراب ومشمولًا بأمل قدوم زائرٍ والبيت خُلوٌّ من أهله.. حينها، يُمسي هو ربّ البيت؛ هو المُضيفُ ومُشعِلُ الأضواء والدّال على غُرفة الجلوس والجالب أكوابَ الشّاي. وسيُنسى لاحقًا ولا يُذكَرُ سوى البيت وأهله. هو يعرف ذلك، ولا يُمانع. وتلك مثلبة البشر. أو قُل، من مثالب قراءة الترجمات.

2

على مسرح أكاديمية الشعر الأمريكي، ومن بين أفضل أربعة عشر شاعرًا في الولايات المتحدة، نهضت نعومي لتُلقي قصيدتين، مثل فتاةٍ تُعطي لسبورة الدرس ظهرها ولأقرانها خجلها الدافئ. لاحظتُ أن شَعْرَ رأسها مفروقٌ إلى جديلتين يغلب عليهما الشّيب، لكنهما تُصرّان على الطفولة. وراحت، بعد قيام زملائها بقراءة قصائدهم، بالتصفيق لهم واحدًا واحدًا فيما يُشبه صَفْقَ جناحي نحلة، بخفّةٍ وسُرعةٍ، وبهجة العسل باديةً على مُحيّاها. وكنتُ على مقاعد الجمهور، بعينين هائلتين كأشجارٍ استوائيّة، وقلبين يضطرمان؛ قلبي، وقلب اللغة. بعدها، تحادثنا طويلًا على مأدبة الطعام عن الشعر وأصولها الفلسطينية التي

لا توفّـر فرصةً للإشـارة إليهـا. وقد رحّبَت بي، كما قـد يفعلُ أيُّ عربي، وتمنّت لي حياةً طيّبةً، كما تفعل أيّة غيمة.

3

للمرأة لمسـةٌ بليلةٌ خَبرناها، ولها عـينٌ رقراقةٌ دومًا في إبداعها، أيًّا كانـت ماهيّـة ذاك الإبداع. ونعومـي، في مجمل أعمالها، تَعـي هذا الأمر وترعاه. ولذا يسـهُلُ على قارئ نصوصهـا -إن جَهِلَ من قامَ بكتابتها- أن يَخلُـصَ إلى أنّ الكاتـب امرأة. لكن، يندر أن تجد مثـل هذا في الثقافة العربيـة. ينـدر أن تجد نصًّا لكاتبةٍ يحاولُ النسـجَ والغـزلَ، يحاول تقليم الورود، دون التماهي مع الطريقة الذكورية الموروثة والسـائدة في النظر والتنـاول، بجحيمهـا وحدائقها.. دون تلك المرآة الرجولية الشـهوانية أو البطوليـة، دون حتى رومانسـية المراهقين في الحُب والهَرَب. لهذا، قد يلحَظُ القارئ أنني نَحَوتُ بلغة الترجمة، عِنْدًا بالتراث والخطاب السائد، وعِنْـدًا بالقاعـدة القائلـة أّن الخطـاب الموجـه للذكور شـاملٌ للإناث، لكـن ليس العكس. أقـولُ، نَحَوتُ بلغة الترجمة في هـذه المختارات من أعـمال نعومي شـهاب ناي الشـعرية للتأنيث كلّما صادفـتُ ما لا جنسَ لـه لغويًـا في الإنجليزية، إذ تفصـلُ الإنجليزية الشيء، أو المُسـمّى، عن جنسـه. جنسُ الشيء أمرٌ مختلفٌ تمامًا عن الشيء نفسه، بخلاف العربية التي تدمج المُسـمّى بجنسـه، إمّـا مذكّرٌ أو مؤنّث. ليـس للطاولة جنسٌ في الإنجليزيـة، لكن حتـى القمر في العربيّة مذكّر. ولو أردت أن تُشـير لجَمـعٍ مـن الذكور فقط، أو جمـعٍ فيه خليطٌ من الجنسـين، لقُلت (هُم)،

إذ على الجمع أن يتكوّن من إناث بشكل صرف لتستطيع الإشارة إليه ب(هُنّ). هكذا، كُلّما صادفتُ كلامًا عامًا موجّهًا للجنسين، وجهتُ الخطاب بالعربية للأنثى بخلاف المعتاد. وجدتُ في النهاية أنني أترجم شعر نعومي كما هو، أو كما أشعرُ به صدقًا في لغته الأم. ولم أتعمّد بما فعلته هُنا أمورًا كثيرةً من بينها مغازلة النسوية، ولكن بما أنّ الترجمة فى جانبٍ من أعماقها استبصارٌ باللغة وتجديدٌ فيها بوصفها كُتلة مفاهيم تُسَيِّرُ عقولنا، قصدتُ أن يعتاد القارئ على أن الخطاب الموجه للإناث لغويًا يعني الذكور أيضًا، أنّ لخطابهن نسيجٌ عليه أن يتعرّفه وألّا يأخذه أخذ الجاهز والناجز، أن لا يرثه، كما اعتدن هُنّ على عكس ذلك، ومحاكاته، لمئات السنين.

أحمد عبدالسلام العلي

نيويورك، نوفمبر 2014م

انتقـــال

(2011)

ديوان من خمسة فصول

مُقدّمة

أراد أبي أن نكتب معًا كتابًا مشتركًا. حوار، هكذا أسماه، لكنه استمرّ في إرسال مونولوجاتٍ له عبر الإيميل والفاكس، يستفيضُ فيها في الحديث بغضبٍ عن مواضيعَ لطالما سمعتُهُ يناقشها- خيبات الأمل، والمصاعب، وخصوصيّات الحياة الطويلة في المنفى، ووجهات النظر في هذا وذاك.

كان يُعاني من فشل الكِلى. لكنتُ قُمتُ بأيّ أمرٍ أراد.

حاولتُ مرارًا أن أجيبه على ما يبعثه لي، لكنه كان يُجيبُ بمونولوجٍ آخَرَ أيضًا. لم يكن يرُدّ على الأسئلة.

لم يكُن هناكَ مِن تسلسُل.

-ما هو الحوارُ إذن يا أبي؟ أينَ الأَخذُ والرّد؟.

فكَتَب لي:

-أنتِ تُخَيّبين ظنّي، ولا تؤدّين الحوار بالشكل الصحيح. أريدُ حقًا أن أُجريه لكّنكِ ترفضين.

لم يكن هناكَ مِن خَيطٍ ناظم.

هو الآن مُهاجرٌ إلى بلادٍ بعيدةٍ عن الأنظار، أمّا أنا فلا زلتُ أتحدث. بَعدَ أسبوعين من وفاته، حملتُ رُزَمًا من مُفكّرات وكرّاساتٍ غير مكتملة من مكتبه الفوضوي إلى مكتبي الفوضوي.

و مـاذا الآن؟ هل تسـتطيعُ سـماعي؟ أأنتَ في أيّ مـكانٍ حولي؟ أُكمِلُ كتابة بعض سطورك -خَطُّك إنجليزيٌّ أنيقٌ رَفيع- وأرى إن كان سـيجيبني أحد. قـد لا أفلح في ذلـك، لكنني أُفكّرُ: ما الـذي عليّ فعله لأكون رفيقتك؟.

قد يكونُ كوبُك الفارغُ الذي أمسـكته بيدٍ راعشـة، أو شيئًا آخر، ما سيُجيبُني بعد قليل.

لم تكـن فكـرة أن يبقى هنا مـن أجلي هي ما تجتاحنـي. لكنه عدم قدرتي على تخيّل العيش في كَونٍ لم يعُد موجودًا فيه.

لقـد أحـبّ العالم. العـالم الذي خيّبـه إلى الأبد، لكنـه أَحَبّه وكان يَأمَلُ له.

كان يخرجُ من غرفة نومه كل صباح بطريقة استعراضية، كأنه على خشبة مسرح، بوجهٍ مُنتعشٍ وقميصٍ نظيف.

«أهـلًا صاحبتي!»، يقولُها لكُلِّ مَـن تعبُر إلى جانبه. أظُن الآن أن تلـك كانت طريقته ليدفع بعيدًا أيّة محاولة للإشـارة العِرْقيّة أو ليتجنب الصـدود. «أهـلًا صديقتي!»، يقولُها لكُلّ نادلـةٍ وبائعة أحذية. جادلناه مرّةً في صِغَرِنا حولَ أسلوبه هذا:

-أبي! حتى أنك لا تعرفها!.

-لا بأس، ستُصبحُ صديقتي في وقت أسرع بعد أن أحيّيها.

عندمـا دعتني مجلة «ميدويسـت» الفصلية لنشر بعض قصائدي، فكّرت في هِجرَة والدي للغَرب الأوسط الأمريكي عام 1951م كطالب جامعـي.. فسـلَلتُ بعض الأسـطر التـي كَتَبَهـا في مفكّرتـه ووضعتها

عناوينَ لقصائد لم أكُن قَد كتبتُها بَعد، ظانّةً أنه بمقدوري كتابتها. وها هي ذي، فصلٌ صغيرٌ عنونته بـ «نادِني عزيز وحسب» مكوّن من قصائد تنامَت بصوته هو رغمًا عنّي. ومرّةً أخرى، لم يكن هناك حوارٌ بيننا.

لم يكُن بمقدوره في صِغرنا أن يرى أحدنا مريضًا. مرّةً، عندما تقيّأ أخي عند نهر الميسيسبي، تقيّأ هو أيضًا كَي يُريحه!.

مَن كانت تستطيع أن تتوقّع على الإطلاق، أَنّ رَجُلًا نحيفًا نابضًا بالحياة والتفاؤل والطاقة، رجلًا كَرِهَ كُلّ الإجراءات الطبيّة، ينتهي به الأمرُ إلى التعرُّض للسُّكّر وجلطات القلب، ولغسيل الدم المستمر جرّاء فشل الكلى؟. لطالما خَزّ إصبعه ليقيس نسبة السكّر في دمه لسنوات طويلة. هكذا شاخَ مُرتاحًا مع النّزف.

-لماذا أنت مصابٌ بالسُّكّر، يا جدي؟

-أظن لأنني اعتدتُ على وضع السكر في قهوتي.

شَوقي إليه يمُرُّ بمراحل شديدة التأثير، لم أعُد أعرفُ كيف سأكمل حياتي.

أتوقف فجأة في الطريق، مصفوعة، فيتحدّثُ إليّ قلبُهُ، تتحدّثُ خِفّة دمه مرة أخرى،

فأمضي بألمٍ خفيف.

كلماته عن الحروب في العراق وأفغانستان كانت مركّزة وبسيطة:

«أخرجوا.

أخرجوا أيها الأميركيون».

و الذين بقُربه يبدأون في التساؤل: لكن ماذا عن...

فيقول: أخرجوا! ما الذي نفعله هناك حقًا؟ علينا أن نخرج!.
لم يكن يشتُم. كان أسوأ ما سمعته منه: أيُّها الأبله!.
و فيما يتعلّق بأرضه الأولى المتنازَع عليها؟ لم يفقد الأمل أبدًا..
الأمرُ برُمّته يعتمدُ على الاحترام المتبادل؛
حُزنُ أبي كانَ أرضًا يابسةً
تحت المياه.

عزيز

أبانا الذي
كان دائمًا أبانا
و لم يكن دائمًا أبانا.

مهاجرٌ –ليس دائمًا–
فقد كان مرّةً طفل المدرسة الواثق
متجوّلًا في شوارع القدس.

عَرَفَ الأزقّة، وتحدّث مع حجارةٍ
كان طوال حياته يلتقطها؛
يصُفّها ويرسُمُ على بعضها وجوهًا.

ماذا نقولُ لأحدٍ
يستيقظُ دَومًا في حَنينٍ للوطن؟
هل أنتَ في المنزل الآن؟
هل تَنْعُمُ فلسطين بالسّلام في بُعدٍ
لا نستطيع رؤيته؟
هل يجلس اليهود والعرب إلى طاولةٍ مشتركة؟
هل من حُرمةٍ بينهما؟

الفصل الأوّل

تاريخ

في القَرن الخامس عشر، كَتَبَ البَحّارُ ابنُ ماجد
عن حركة النجوم،
وأنشدَ تسابيحًا للموجات والقمر.
و اليوم، ينحشرُ ملايينٌ من الناس
مُشكّلينَ مُدُنًا،
يبيعون فيها الفواكه على عرباتٍ مُتهالكة.

تَصعُبُ رؤية النجوم
عِبْرَالأضواء والسديم،
و بقايا الوَصَايا
تُثقل كواهلنا.

في مطار أبو ظبي
كان الجميعُ -شبابًا وشيبًا- يشبهون أبي..
يُشبهونَ أبناءنا.

عيونٌ تطرُفُ سريعًا- ثم تُشيحُ بعيدًا،
أُكتُب الليلةَ على باطن أكمامك.

لقد وُلدنا للشّتات،
للتأسُّف على سلالةٍ تاهَت،
ما الذي فعلناه ببعضنا البعض
في كوكبٍ مُتاحٍ جدًا
للقيام بأُمُورٍ أخرى؟

1935

كنتَ في الثامنة من عمرك في هذا الفوتوغراف،
تَقفُ خلفَ طاولةٍ يَجلسُ إليها رجالٌ
يغمسون الرغيف في الحمّص.
رجالٌ على مقاعد بسيطةٍ
و يعتمرون أغطية رأسٍ مختلفة،
رجالٌ منهمكون في الأكل
لا يرون شيئًا سوى طعامهم؛
طاولة خشبية متينة،
و أطباق صغيرة،
و كومةٌ ساخنة من الأرغفة
مطويّةً على شكل مثلثات.

تمنّيتُ لو أنني وجدتُ هذه الصورة
أثناءَ حياتك.
هل تركوا لك اللّقمة الأخيرة؟
تبتسمُ كأنّك تملك المدينة كلها،
و تستطيع الذهاب إلى القدس..

تراقبهم يأكلون بِوِدٍّ
منتظرًا دورك.

كانت صديقتي الجديدة تحتفظُ بهذه الصورة
مُعلّقةً على جدارها. لكنك تحدّثتَ داخل رأسي
في اللحظة التي سبقَتْ وقوعَ عَيني عليها.
تتدلّى الصورة الآن بجانب مكتبي
محتفظةً بطبقاتٍ من عالمٍ ضاع،
حيثُ كُنتَ – لا الشّخص الذي أعرفه فقط،
بل الشخص الذي يسبق من أعرفُه–
في كَونك،
و قصّةُ الطريق الآخر الذي
كان ممكنًا لحياتك أن تسلكه
لا تزالُ
مُبتسمة.

خفافيش

لَفَفْتُ السنجابَ الميّت
بكنزةٍ قديمة،
لَفَفْتُ الساندوتش الجاف بورقةٍ مُجعّدة من شَمع.
لفَفتُ الأمّ الباكية
داخل أُمٍّ ضاحكةٍ
اختلقتُها.

هل رأيتُنّ ذلك؟؟
سِربٌ من الخفافيش هوّمَ فوق السّاحة،
جميعهُنّ قُلنَ إنها كانت طيورًا.
خافَ الأطفالُ
لكنني لَفَفْتُهم بحُلمي.

خُذوا كلابكُنّ الضّخمة اللاهثة
بعيدًا،
سأُبقي البومة عاليةً على الأفاريز،
سأُبقي على صوتٍ مجهولٍ

اندسَّ في لِحاء شجرة البلّوط المنحنية
في ساحة المدرسة.. هذا مكاني، ومكانهم أيضًا.
مَن نظُنُّ أنفُسنا؟ خفافيشي:
عيشي مديدًا، وازرعي الأشياء.

لفَفْتُ البذار بالتُّربة،
لفَفْتُ صوتًا جديدًا
في ورقةٍ مطويّةٍ
بَدَت وكأنها
قَميص.

خائفة، خائفة، خائفة

1.

ما من لُعبة هُناك، كلماتٍ متقاطعة وحسب؛
-كم كلمةً وجدت؟ هل نُكمل؟

صعدتُ حافلةً إلى «ديلمار» عام 1955م؛
مبانٍ طوبها أحمر، نوافذٌ مشعّة،
مسرحية «ساحرُ أوز» تُعرَضُ وقتها، وقَد أخافتني؛
أقزامٌ وساحراتٌ ومنزلٌ طائر...
عُدتُ للبيت وجلستُ على مقعدٍ ذو ظهرٍ مرتفع.

-بابا!! ما هي تلك التذكرة في يدك؟
-إنها تذكرة مواصلة الرحلة، سنصعدُ حافلةً أخرى عندما ننزل من هذه.
كان يلبسُ قميصًا أبيض، ويقبضُ على التذكرة بقوّة.
-لماذا؟ بابا لماذا؟
-لأن هذه الحافلة تأخذنا لمحطةٍ قريبةٍ فقط، ثم علينا أن نركب أخرى لاتجاهٍ آخر. نحن بحاجة لحافلة تأخذنا باتجاهٍ مختلف.

-لماذا؟
-لأننا نحيا هناك.

لم أكن أريدُ أن أحيا في تلك الشّاشة؛
أُسُود، وفزّاعات، وجنون العابرين، وأحذية برّاقة.
-ستكون معي، أليس كذلك؟ أأستطيع أن أمسك يدك؟
قال لي بلى، وهو يرقبُ عن قُربٍ
ألّا تفوت المحطة.

.2

سافرَ لاحقًا لأماكن كثيرةٍ معنا ومن دوننا،
كان يشعرُ بالأمان في السّفر،
في الرّغبة بأن يكون في مكانٍ آخَر،
قَلِقًا، ذاهبًا.
وجدتُ ربطاتٍ من مُلصقاتٍ ورديّةٍ لأسفاره تلك في دُرجه،
قامَ بنَزعها من حقائبه والاحتفاظ بها.
تذاكر للجزائر -متى ذهبت للجزائر يا أبي؟-
بطاقاتٌ، ومناديلٌ كُتبت عليها بعض الأرقام.
حَلُمَ بالقيام بشيءٍ عظيمٍ من أجل السّلام، شِفاءٌ عالمي..

و انتهى به الحالُ إلى مجادلة القَريبينَ منه وحسب، أَوْجَدَ طُرُقًا
ليُجَعّد هدوء فرائهم.

هُناكَ مَنزلٌ بحديقةٍ ذابلة، ورجلٌ عجوز
يسكن هناك وحيدًا. وفي أحد أيّامه ثقيلة الألم، قال لي والدي:
فلنذهب لرؤية ذاك الرجل، إنه بحاجة إلينا.
كانَ يأملُ أن يرى رَجُلًا لم يعرفه من قَبل؛
قامَ بإغلاق الباب في وجوهنا:
لا شُكرًا، أنا بخير.

و هو يقودُ السيارة بين الحدائق في الجِوار،
على بُعد عِدّة أحياءٍ من المنزل
مَرَرنا بشوارعَ تُظلّلها الأشجار
لم نطُف بها من قبل، سألتُه: هل رأيتَ هذا من قبل؟
ظلّل عينيه بكفّه: ليس من قبل، ولا الآن..
لا أريد أن أراها.

.3

متى نصلُ هناك،
حَيثُ نحنُ ذاهبون ؟

ما الذي أطال سفرنا هكذا؟
ذلك كثيرٌ جدًا، أليس كذلك؟
حقيبةُ كتفٍ صغيرةٍ وحَسب
مدسوسةٍ تحت المقعد
كانت لتكفي.
كُنتَ تُحلّقُ في حياتك كلها عائدًا لحياتك الضائعة،
تهبطُ على الأرض مثل بيت السّاحر أوز.
احتفظتَ بالمفاتيح كما تفعل الفلسطينيات،
أبقيتَ على مقرعة الباب.
و ها أنتَ حقًّا بلا منزلٍ الآن،
التهمت النّارُ جسدك، فصرتَ مترامياً
كالسماء.

مُطارَد

نبحثُ عن ضحكتك
نحاولُ الوصول لطريق العَودَةِ إليها
بين الأشجار المُتهدّلة.
نُنصتُ لخشخشتك تحت سيقان البامبو،
لصوت كَنسِكَ لأوراق التين،
نشعُرُ بوقع خُطاكَ في الفارندَة..
زهرةُ لانتانا أنيقة
مدسوسة في فتحة زر قميصك.
نرى وجهك مُشرقًا
في كِلا طرفي النهار.
كيف حدث أنك عشتَ
عند حوافّ كل ما فعلناه؛
فصولٌ من التوجُّع والنمو،
جِبالٌ من الرسائل وثياب الغسيل؟.
أبحثُ عنك أوّلًا وأخيرًا
في الأماكن المعتمة
حين أُشيحُ بوجهي بعيدًا

عن عناوين الأخبار في الغروب
راميةً صفحة الأخبار المكوّرة على الأرض.
لهُدوئك همهمةٌ
تنسكبُ فيَّ،
رِعايتُك تشفعُ لرحيلك منذ اليوم الأول،
أن أراكَ وأن ترقُبني
من كُلّ زاويةٍ
في فناء البيت.

حكواتي

أينَ بَابُ الحكاية؟
هل تُرِكَ مَفتوحًا؟
عندما جَلسَ عند أسرّتنا
مضت الأيّامُ مُسرعةً كالمياه؛
أخشابٌ طافيةٌ وطوبٌ،
و صناديقُ شحنٍ ثقيلةٍ تختفي أسفل المجرى..
ولا يهم، لا يهم..
حتى الأشجارُ خلف مَنَاخِلِ نوافذنا
أمالت أوراقها الباردة لتستمع.
عُمنا بسهولة لقرية الحجارة؛
نساءٌ بثيابٍ سميكة، رجالٌ بأنفاسٍ دُخانية،
جلسنا حول نارٍ أشعلناها
بأغصانٍ نحيلةٍ لنا،
و أخذَ العالمُ يتموّجُ من حَولنا،
يطيشُ ويطقطق؛
لقد أسقطنا همومنا في حضن الحكواتي
فصارت تحدّق نحو شخصٍ آخر
غيرنا.

الفصل الثاني

«نادِني عَزيز وحَسب»

اقتُبِسَت العناوين من مُفكّرة عزيز شهاب،
و كُتبَت القصائد بصوته

سألني كثيرون ألّا أنساهم

أين تُبقي كُلّ هؤلاء الناس؟
الإسكافيُّ وكُحّته المتغضنة،
الرّجُل الذي يُجدّل من القَشّ مكنسة،
مُعلّمتي -أوه.. سأبكي دومًا عندما أفكر بها-،
فلّاحة الزيتون التي فقدت كُلّ بوصةٍ من أرضها
و أشجارها جميعها،
ثم قضت عمرها بعد ذلك جالسة
و رأسها بين يديها
في صالة بيت ابنها.
لقد شدَدْتُهم جميعًا في دُرجي
بياقاتٍ وربطات عُنُق.
أتحسّسُهم كُلّ ليلةٍ
قبلَ أن أنام،
أتمنّى لهم السعادة والسلام،
السلام الذي في القلب،
فلا عجب أن لدينا جميعًا
متاعبٌ في القلب.

واعظٌ في كانساس
دعاني بـ «رجُل العضلات»

و قد كنتُ أيضًا رَجُلًا نحيلًا، ياله من موقفٍ مُضحك!
نادِني عزيز وحسب.
لقد أراد أن يُحوّلني،
أرادَني أن أقفَ لغناء ملائكته الخاصّة.
فأخبرتُه: إسمع،
كانت بيت لحم لوقتٍ طويلٍ إلى جواري،
كانت ضاحيتي، مشيتُ هناك طفلا
من منزلي مع حشودٍ
تُشعِلُ الشموع عند الغروب.
حشودٌ تركتنى أُتابعها
و أُحرّكُ فَمي مُدعيًا ترديدَ كلماتها.
لو تنشّقتَ بَشَرَةَ رِسغي –هنا بالضبط–
لشمَمتَ شذا المطر على الصخور التي
تَخطوها نزولًا على السلالم القديمة
نحو الكنيسة،

تستطيع أن ترافقني إن شئت!
و أظنك تستطيع سماع بكاء المسيح أيضًا!
و أستطيع أن أخبرك أين هو البابُ السريُّ
المُفضي لأكثر من مَزَارٍ مُقدّسٍ،
يا للمسافة التي عليكَ أن تتحدّرها
لتدلُفَ من ذاك الباب،
لكنك ربما كنتَ طويلًا جدًا وعَريضًا..
لا أعتقد أنك
تستطيعُ الولوجَ منه.

أكرهها، أحبها

أعمل أحيانًا لصُحُف أخبار،
أقرأُ عن اضطهاد أهلي.
كنت أرغب في تمزيق القصص بدلًا عن طباعتها،
ثم أتمشّى بعدها
ذاهبةً إلى مانهاتن كافيه
كي أتناول صحن الغداء مع «دان» صاحب المكان.
أهله من اليونان.
سألته عن سبب دناءة الناس
تجاه بعضهم البعض، فقال: لكنّك تُحبين هذه البلاد،
ألست كذلك؟.
فأجيب: بالطبع، أكرهها، أحبها.
يتحدث ويُنصت بعفوية
حتى يعطيني مزيدًا من الزبدة
أدهنُ بها رغيفي.
لقد أحببتُ كيف يهز كتفيه بلا مبالاة
ثم يجد ابتسامةً ما بداخله ليجُرّها..
ذلك بالضبط ما حاولت فعله أنا أيضًا،

بشكل خاص في عملي، صناعة الأخبار.
تبعث على الاستغراب دومًا
تلك الطريقة التي تجعل من شيءٍ ما خبرًا
و آخر ليس بخبر –من يُقرّر؟–
غريبٌ أيضًا ما حرّفه الوقت حتى وصلني
ثم كيف ستفكر به أمي التي لم تسمع به مطلقًا
جالسةً في بيتها الحجري
ومئات السنين معلقة على الجدران.
لكنه ليس بيت العائلة الذي أحبّته جدًا،
ذلك البيت الذي فقدَته في القدس
ولم نتحدث عنه كثيرًا،
فقد كان كأحد أقاربنا وقد مات في بلادٍ أخرى،
و لم نكن قادرين أبدًا
على تغسيل جسده.

عندما تبعُدُ كثيرًا عن البيت، تمتزجُ الحقيقةُ بالخيال

ليس لأحدٍ أن يأخذ عليك هذا المَمسك،
كان ذاك وسيلةً للبقاء.
لطالما ظننتُ أنّ أفضل مواهبي كانت
أَن آخذ حكايةً هزيلةً
أُلصقُ بها ذيلًا وأجنحة
و أُلبسُها عباءةً بدويّةً من الصوف
مُطرّزة الجوانب،
و ألُفُّ غطاء الرأس عليها
لأَخرُجَ بصورةٍ أجمل.
غَضِبَت أمُّك مني بعض المرّات
لروايتي الحكاية بشكلٍ مُختلف..
لكنها لم تكن مُختلَقَة
لُمجرّد أنها بملابسَ ثانية
و أشياءَ أخرى أشدّد عليها.
لَبِسَت أُمّي الحكايات لمئة وسِتّ أعوام

حتى ذاك الشتاء الأخير الذي
صعدَت فيه فِراشَها
كالقارِب، تتهيّئ للنوم.
قد يكون من واجبنا أن نتشكّل
مئات المرّات
عِبرَ نفس الحكايا.
يبدو لنا أننا نرويها فقط،
لكنها في الحقيقة
تُبقينا أحياءً؛
أوكسجين الذّاكرة
نتنفّسه، داخلا
خارجًا.

رائعةٌ هي العودة للعائلة،
لكنها تستنفدك بشكلٍ مُروّع

هناك دَومًا ما يريدونه.
و هذه هي المشكلة مع العائلة أساسًا.
لا يستطيعون أن يفرحوا لمجرّد وصولك.
ما الذي في الحقيبة؟ ما الذي في جيوبك؟
هيّا، أنثر ما بها،
إنه لي
إن كان برّاقًا.

فَردٌ من القبيلة

لسوء الحظ، هذه هي الحقيقة،
أأحببتها أم لا،
أكانوا مُتعلّمين أم جهلَة.
إنها إحدى الأشياء الكثيرة التي
لا يفهمها الأميركيون عن العراق؛
أُقتُل فردًا من القبيلة
تكرهك القبيلة كلها.
كيف يُمكنها ألَّا تفعل ذلك؟.
يظُنُّ الأميركيون أنهم إذا كرهوك اليوم
سيشكرونك غدًا.
القبائلُ مثل أشرطة التسجيل
لن تنسى. لا تسألني كيف إذًا
يقتل العربُ العرب، بعد معرفة هذا.
و الحال نفسه في أفغانستان.
لا أفهم هذا كله.
لا أفهم أشياء كثيرة.
و إلى حينه،
علينا أن نقول ما نعرفه.

مَضَت خَمسونَ عامًا منذُ ابتهَلتُ أو فكّرتُ بالعَرَبيّة

كنتُ فخورًا بمهاراتي اللغوية.
عندما كنتُ مراهقًا وأعطتني قناة بي بي سي
بدلةَ كاكي لأرتديها
مع وشاح كطفل فرقة كشّافة،
دفعتني أَمام المايكروفون –هائلًا كزهرة عبّاد الشمس–
و سلّمتني صفحة الأخبار لأقرأها–
أظن أنني عندها قد تغيّرتُ للأبد.
تلك الذبذبات الهوائية المترحلة
عبر أجهزة الراديو
جعلتني أشعر بأن لديّ ما أُعطيه..
شيءٌ ما في اللغة الإنجليزية
أشعَرَني بقدرتي على الترحال أيضًا؛
أزورُ الأماكن التي تحدُثُ فيها الأخبار،
ألتقطها،
أضعها في محفظتي وأُمرّرها أيضًا.

لم تكن نوعًا من القوّة، كانت سحرًا.
وقد كان لديّ شعورٌ جيّدٌ سحري
و أنا أسيرُ في مجال صُحُف الأخبار لسنوات قادمة.
لِذا، لم أقض وقتًا في الاستماع للراديو مرّةً أُخرى،
فللصحف صوتها السحري الخاص أيضًا،
و لم أفقد جوعي لتمرير الأخبار الجيّدة.
لطالما كنتُ معجبًا بال بي بي سي
رغم أنها لم تستطع حمايتنا مما حصل،
لم يستطع أحدٌ حمايتنا،
لم نستطع نحن أن نحمي أنفسنا.
وهكذا استمرّ الحال لاحقًا حتى صرتُ أحتضر؛
ها هو صوتُ والدي
أسمعه لأوّل مرة منذ رحيله عنّا،
بالعربيّة..
لكأنّه كان واقفًا في الطرف الآخر من الجسر،
مُتحدّثًا بصوتٍ أضخم من الراديو،
يتردّد صداه فوق المياه..
ذلك الصوت المألوف الناعم، يقول: لا بأس،
لقد فعلتَ ما أمكنك فعله،
تعال الآن،
نحن بانتظارك.

الفصل الثالث

غسق

-أينَ هو الاسمُ الّذي لم يُجب النداء عليه أحد؟
-غادرَ ليحيى بنفسه
تحت أشجار الصنوبر الفاصلة
بين البيوت، بلا صديقٍ أو فراش
بلا أبٍ يروي له الحكايا..
كم كان صعبًا ذاك المسارُ الذي سلكه
كلّ هذه السنين
منتميًا للاشيء من صراعاتنا
مُنسربًا تحت صفحة التقويم،
مُراوغًا كالرُّفَات..

..وحين سألَت إحداهن:
كيف كنتَ كُلّ هذا الوقت؟..
كان مُستَغرَبًا جدًا
أنّ من حاول الإجابة
كان هو نفسه
ذاك الاسمُ الأوّل.

ظامئ

كُلّ يوم
تأتي الأَخبارُ بـ «مُسلّح»-
قد يكون طفلًا منفرط القلب
يتهوّرُ فيما يفعل،
و أشتاقُكَ. تَدري.
رحلَ أحمد موسى مبكرًا جدًا.
مُحتَجًّا على الجدار الذي
يقتلع أشجار الزيتون في قريته
من الأهالي الذين يعتنون بها؛
يحملون دلاء الماء..
الأهالي الذين يجتمعون
و يُغنّون أغنية الزيتون طوال أيامهم.
ترجوه عائلته: لا تذهب إلى هناك..
طفلٌ في العاشرة يحمي الشجر.
مَن غيره يمتلك هذا الجَلَد؟
رصاصةٌ لأحمد موسى
في جبينه.

«اجتمع المشيّعون حول أبيه الذي
استند إلى الجدار»،
لكنه جدارُ المشرحة هذه المرة.

-أَوقِفها يا أبي،
مِن أيّ مكانٍ كنت، أَوقِف هذه الجدران.
و احمي الأشجار التي لا تعرف
أين ذهب أهلها، أو كم سيطولُ الوقتُ
قبل عودتهم.

عامر وآنا

لا يستطيع عامر النوم،
إنّه يغوص في فراشه.
آنا تخاف كلّ شيء؛
السيّارات المركونة، الحافلات السائرة.
إنها تخاف حتى من شريحة التوست.
يبدأ اسماهما بحرف «A»،
و يتكونان من عدد الحروف نفسه،
يعيشان على بعد ميلٍ واحدٍ من بعضهما.
لم يهبهم أحدٌ ما يستحقانه.
حَولَ منزل كُلٍّ منهما
منازلٌ للعرب واليهود
و زهور الخشخاش الحمراء تنام
فيما بين الحصى والتراب.
ما الذي يعرفونه؟
في آذار يتكلّم الاخضرار
برؤوسٍ تُرفرفُ
و ترتفعُ، ترتفعُ
في كُلّ جهة.

أكواريوم دُبي مول

و في أيٍّ من العوالم الأخرى نبدو غير مرئيين؟

يبرُقُ الأزرق،
و الزّعانفُ تخفقُ،
و بالكاد تُلاحظُنا الأسماكُ
و نحن نتداخَلُ ونتدافَعُ
على حوافّ أبصارها.

حَرب

إن كان هذا ما تعلّمنا لأجله؛
رؤوسٌ محنيّة فوق الكتب
على طاولاتٍ خشبيّة
حُفِرَت عليها أسماءَ مَن ماتوا–
عندها
سيكونُ لعمليّة «الطّرح»
معنىً جديدًا بالنسبة لي.

أشجارُ الزيتون، جُزّ من أرضها ثلاث فدادين،
هذا يساوي صفر صفر صفر،
هذا عنواني، وهذه علاماتي على الورقة.

إن كانت هذه هي الضمائر المُتداولة:
أنتَ تقتُل، هو يقتُل، هي تقتُل، أيًّا كانَ يقتُل–
فأنا أتحدّثُ إذن بلُغةٍ جديدةٍ.
تتساكَبُ على بعضها البعض بلا مبالاة:
الصبُح، الأماني، النوافذ، قُبَلٌ كثيرةٌ على الفَروة الدافئة لرأس طفل..
إن كان هذا ما تنحني له رؤوسنا للصلاة

في الزوايا، وعند المواقد
لسنواتٍ طويلة، فسامحني.
إنسى الكلمات والوقوف وأوقات النهار.
الدّمُ يتوجّعُ في عروقي.
أين دَفَنّا «سِتّي»؟
سأنتظرُ إلى جانب شاهدها
مُكرّرةً نفس القصّة التي رَوَتها
عن نهر الانتظار،
عن أنه ينالُ من بعضنا عندما يسقطون فيه
فلا نراهم مرّةً أخرى.
أو كيف ينتهي الحالُ بالبعض
إلى مُفارقةٍ أخرى ساخرة،
كأن يتكنّى بـ «مو» بدلًا عن «محمود» –
ضائعًا في دكاكينَ صغيرةٍ
أو يصُبُّ البنزين.
هل هذا هو الإصرار؟
مَن تدري، أنا محشورةٌ
في زاوية حَربٍ بالكادِ يدعونها حربًا،
مُقيّدةٌ كحمامةٍ في قفص
و عَينايَ الجافّتان
تلتهبان.

الحَرق

تلك الغصّة التي
ترتفع في حلقكِ
عندما تنهَرُكِ امرأةٌ ببدلةٍ عسكريّة: إرميها بعيدًا!..
فترتعدينَ مُلتزمة أوامرها:
لماذا تختلف الأنظمةُ من مطارٍ لآخر؟
اعتَدْتِ على حمل علبتين من أكياس البلاستيك الصغيرة معك،
لا واحدة،
لكن طريقتكِ في الوقوف
قَد دَعَت رجلًا ببدلةٍ عسكريّةٍ للاقتراب منك
كي ينبُح: هل هناك ما لا تفهمه؟
فتُحدّقين فيه مليًّا:
الكثير من الأشياء؛
مَسِيْرُ طوابير النازحين
من أرضٍ جافّةٍ إلى أخرى،
بِصُرَرٍ ملفوفةٍ
و نارُ الأجداد تخمدُ خارج بيوتهم المسروقة،
أن تكوني في السادسة من عُمركِ

وتصرُخُ بِكِ مُدرّسة
تعرفُ كُلّ الأشياء السيّئة الّتي
يُمكنُكِ فعلها في ساحة اللعب.

تضعين بعض عُلب الشامبو الصغيرة وكريمات الوجه
في كيس بلاستيك واحد
فيستطيعُ العسكريُّ صفعك لذلك أيضًا!

آسفه، آسفة حقًا، لم أكن أريدُ لكِ
أن تتخلّي عن سبع عُلَبٍ إضافيّةٍ من ماركة Bless
سائل الاستحمام برائحة الليمون والمريميّة الفوّاحة
و الذي دفعتِ من أجله إكراميّةً إضافيّةً لخادمة فندق W
كي تُغادر لتستلّيها، ليكون بمستطاعك
ادّعاء عَيشِ ساعةٍ سعيدةٍ واحدة من حياتِكِ
بلا هموم
عندما تعودين للمنزل.
هكذا تتمنّين للعُلَب أن تأخذها المرأة العسكريّة
من سَلّة القُمامة عندما تستديرين بعيدًا..
فمن الواظح أنها تحتاجُ لحمّام استرخاءٍ
و كأسَ «جِن» قوي،
و يحتاجُ الرجل العسكري لشيءٍ أشبه برحلة

إلى بلادٍ مليئةٍ بجنودٍ غرباء،
و نحتاجُ جميعًا أن نزدرد ريقنا بقسوة، لتذوب الغصّة
و تتحرّر ضغوطاتُنا،
لتستطيع عوالمنا المختلفة أن تتمازج بوِدٍّ من جديد،
فلا يعودُ بمقدور أحدٍ
أن يشعُرَ بالمُسدّس مدسوسًا
خلفَ ظهره.

صارم

تهوانا المصاعبُ كثيرًا،
تختبئ في أكمامنا.
يقول «بول» أن أخطاءنا هي ما تدعو الناسَ لحُبنا.
و لأن لكنتَه إيرلنديّة، ظننته قالَ «ألغازنا» بدل «أخطاءنا».

للمنارة أضواءُ إنذارٍ ضئيلةٍ تلمعُ في الظلام-
و غنّى طيرٌ لم يستطع أحدٌ رؤيته: هُبّي! هُبّي!.

عِبر وادٍ في باكستان تصطفُّ خيَمٌ بيضاء،
هل للأخطاء أيّة علاقة الآن؟
كيف يمكن للمنزل
أن ينتقل بلا إخْطَارٍ،
و ما الذي يحدث حينئذٍ
للفصول
للعمل
للحَارة،
كيف ينخرط الناس في أعمالٍ لم يحصلوا عليها؟

فتياتٌ بجدائل سوداء وتنانير زرقاء
ينتظمن على طاولاتهن،
يُرِدْنَ للدّرسَ أن يطولَ أكثر.

في ذاك العالم
قُبلتَان على وجنتي شيخٍ كبير
قد تهيّجُ المكان،
يتراجعُ الناسُ للخلف مشدوهين
تتّسعُ عيونهم: لا تفعلي مثل هذا هنا..
أردتُ الهرب قبل أن يفقدوا أعصابهم أكثر.

-المشاكلُ تزداد، مشاكلٌ كبيرة كبيرة، ليس لديكِ أدنى فكرة.
-أنتِ مُحقة، ليس لديّ أدنى فكرة، ولا أريد منها حتى واحدة
إذا كانت بهذا الشكل
حزينة.

عقار

يلتقطُ أبي مطويّات الإعلانات
من كل محطّة نمرّ بها
باحثًا عن بيتٍ آخر، عن مكانٍ يهرب إليه.
إذا خسِرْتِ بيتكِ الأوّل الذي
أحبَبْتِ بشدّة
ستَحيَينَ مشؤومةً على نحوٍ ما.
اشترى خمسين فدّانًا؛
بيتٌ تحتلّه الفئران، بحديقةٌ مُهملة..
و وقفَ ينظُرُ إليه وحسب.

قالت صديقتي وهي تحتضر:
علينا أن نرتدي درعَ الفرح.
لربما أن الحصول على بيتٍ آخر
كان يعني زواجًا سعيدًا، وقَلبًا صامدًا.
لو كانت له حقًّا غرفة نومٍ واسعة واحدة،
فلربما أصبح مستقرًّا.

أَعرِفُ ما أنت باحثٌ عنه؛
شارعٌ منتهٍ بأشجارٍ عتيقة،
شبكة لرَيّ الحديقة، وجَلسَةٌ خشبيّةٌ خارجَ المنزل،
و أرضيّة جديدة بالكامل..
مَوقع خيالي، أخشابٌ لامعة تكسو الأرض..
تَصميمٌ حَديث، وإطلالة درامية من رأس تلّة...

حتى في شهوره الأخيرة
عندما كانت دماءُ جسده المحموم
المَدهونِ بالزّيتون
تدورُ في آلة التنقية كُلّ يومين،
كان يفكّرُ بالإطلالة من رأس تلّة؛ هل يُمكنُ أنّه كان يرى
-عِبرَ كُلّ هذا الطريق من المحيطات-
من مكانه
الدّرَجَ المشغولَ بالحَديدِ
و سَطْحَ القرميدِ الأحمَر؟

ابتعاد

بعد تسعة أيام
عادت الجروةُ «روزي» إلى المنزل
بدُكنةٍ أعمق في عينيها..
لن نستطيع أن نعرف بالضبط أين ذهبت
أو ماذا رأت.
لكن صار للصّيف معنىً آخر
لكُلّ مَن بحثَت عنها،
الآن نعرف كم من الكلاب البائسة
تتمدّدُ مُنهكةً على الأوساخ
في شوارع تُدعى الحَيرة والكَدح
في المنعطف الخلفي لمصنع البيرة القديم،
كم من بيوتٍ مهجورة،
و حُطام، رفوفٍ مكسورة..
أريكة بلا مساند، ومسالك وحيدة،
و شقيقان عاريان من قمصانهم
يجلسان في مؤخرة شاحنتهم
و ينظران إلينا باندهاش، فيما كنا

ندورُ في حارتهم.
كم من قططٍ هزيلة، قنانٍ مسحوقة،
و الرّجُل الذي يلبسُ مئزرَ طبخٍ أبيض
نفخ أنفاسه بقوه عندما استدرجتُ كلبتهُ
من ظل الشجرة، لأُلقي عليها نظرةً عن قُرب..
هل يُبقيها بجانبه في المطبخ الآن
تحت المروحة المتحركة، ويحسبُ أنني
أُبقي عينيّ عليها؟ فيما الجِراءُ الشّاردة
تعرُجُ بالقُرب من النهر، تلهثُ
و يلوحُ لها الأفق
بليلةٍ غامضة.

أينَ أنتَ الآن؟

أَحُطُّ رأسي على الوسادة
حيث قصصتَ لي آخر حدّوتة،
مُجاوِرًا الحمارَ بالجمل والفأر،
بالرحلة والمطبخ والأشجار،
فنَمَت الحكاية متشعبةً وطويلة
بخلاف ما اعتدت.

استمعتُ إليك
من السرير الآخر الصغير،
و فكّرتُ -لا في القصّة فقط-
ولكن في كونها آخر ما سأسمعه
بهذا الصوت،
مستعيدةً حكايتين وأربعٍ وسِت
عندما كان الصّوتُ يُهدّئُ رَوعي
كُلّ ليلة..
و أُفكّر كيف سأحيا من دونه؟

في لحظةٍ ما، رُحتَ تُهلوس؛
أتيتَ بالسياسة، وبتلميحةِ إيمانٍ نادرة،
و حتى بسيرة المُمَرّضة السيئة التي رَعَتكَ في المستوصف،
يبدو أنّ خيبةَ أملك من طول المَرَض
صارت تُربكُ الحدّوتة.

-أوه والدي، لقد كُنتَ شُجاعًا.
فقُلتَ: ما الذي كان باستطاعتي فعلُهُ؟
ثم عُدتَ إلى الحمار المُطمَئن،
و عُلبةِ الزيتونات..
إلى دخانٍ يتلوّى صاعدًا من حَطَبٍ مُشتعل؛
تلكَ النّارُ الّتي يستطيعُ أيّ أحدٍ-
فتاةٌ ضائعة، أو سوّاح، أو حتى رجُل يحتضر-
أن يُدفئ كفّيه
عليها.

هل ستبقون على حُبّي عندما أموت؟

جملةٌ استوقفَت مَن بالغُرفة جميعًا،
بعدها: بلى! بلى!.

من المستحيلِ ترتيبُ وسائِدِكَ
بطريقةٍ تُريحُك.
صَفَحَاتٌ مُتناثرة، وحَيَوَاتٌ تمضي في الخارج.
إلى أين أيضًا كان بإمكاننا أن نأخذُك؟
في يومك الأخيرخرجنا لنتمشّى،
احتجنا لأزهارٍ برتقالية وأعشابٍ خضراء..
ردَدْتَ آخر صينيّة عشاء،
و أكلتَ علبة حمّص صغيرة
تناوَلتَها من حقيبتي.
كُلّ شيء كان مؤلمًا حينها؛
أسلاكُ الكهرباء تطنُّ من العصافير.
اتصلتَ على صديقك الأقدم وودّعتَهُ،
و أنا استدرتُ لأتفحّصَ بريديَ الإلكتروني..
مَن كنتُ آمُلُ أن يُراسلَني بغتة؟

و قد كنتَ أنتَ هناك!.
فرقعةُ الرّعد
كانت لحظة رحيلك.

سنبقى نُحبّك
حتى وإن كُنّا نحنُ أيضًا
ميّتين.

غيرُ مُنتهٍ

أغلـقَ العُمّال شـارعنا ورصيفَ المُشـاة بحواجز صفـراء مُخطّطَة. حفـروا بضجيجهم ثقوبًا في الزوايا الأربعة للمسـاحة المسـوّرة. كانت وجوههـم جادّة، مُنكبّة على مهمتها. سـكبوا إسـمنتًا رطبًا ثم مسـحوا عليـه لينعّمـوا الزوايا. خلاّطة الإسـمنت تـدورُ وصوتها يدوي. سـتة رجال، يومان من العمل، ولابُد لكُلّ واحدٍ منّا أن يجتازَهم نحو طريقه.

كان يمكننـي بسـهولة الذهاب للخارج بمسـمارٍ وقتَ الغروب، لأحفر قمـرًا ونجمةً في إحدى زوايا البلاطة الرمادية الخالية. وحتى لو لم يلحظ أحدٌ أن الإسـمنت الجديد قد تمّ نقشـه، كنت سـألحظُ ذلك أنا في كل مرّةٍ أقودُ فيها درّاجتي على المنحدر الناعم نحو الشـارع الرمادي القديم الذي عبرتَهُ مرّةً بقدميك الاثنتين.

تبعـثُ فيّ السـعّادة حقيقـةُ أننـي لم أكن بحاجـة لأن أدفعك على كُرسيّ عَجَلاتٍ على ذلك المنحدر.

لَكُنـتُ كتبتُ اسـمك، وحفـرتُ بجانبه قلبًا يـكادُ لا يُرى لدقته – بسـكّين فتح المظاريف، بشوكةَ تكسـير الثلج، بكمّاشة مسنّنة، بِعُود.. هكـذا كانت أيامي التي توقفتُ فيها، مذهولةً، وسـط كل شيء، عندما جَرَفَتني الصّدمة.

كيف استطعْتَ أن تترُكَ مكتبك؟

أرقـام الهاتـف في دفـتر ملاحظاتـك الأسـود، حقيبتـك البالِيَةُ، وكأس أقـلام رصاصٍ غير مُدبّبة، وأقلام الحبر التي لم تخُط مرّةً بشـكلٍ جيّد، وكرّاسات بوست-إت الصغيرة؟ «مارك»، أمينُ المكتبة اللطيف، كتبتَ رقمَهُ على كرّاسـتك، وكان هذا آخر رقمٍ كتبته. قامت أمي بإلغاء رقم هاتفك بعد يومين من وفاتك. لم أُصَدّق ذلك..

ماذا لو اتصلت بنا؟.

الفصل الرّابع

سأكتُبُ هذه السنة بالرماد
و السّنة القادمة
سأكتب بالخوخ.

فراشةٌ صفراء شاحبة
اندفعَت كالسّهم
بين أغصان شجرة التُفّاح المتفحّمة.
و القصّة، القصّة التي تحكيها؟
صفراء.

حَي

قالت إحداهُنّ من «أوريغن»:
العزيزة ((آبي)):
أُعاني من مشكلةٍ مع تعلُّق حبيبي
بعُلبة حليبٍ قديمةٍ جدًا
لا تزال ممتلئة في ثلاجته..
قُلتُ له إمّا أنا أو الحليب،
هل يبدو ذلك غير منطقي؟.
العزيزة ((كارولين)):
يرفض أخي أن يتحدث معي
لأنني منذ خمسين عامًا همستُ له
أن قردًا سوف يختطفه في الليل
ليعود به إلى عائلته الحقيقية.
كان عليه أن يفهم أنها كانت مِزحةً
عندما لم تحدُث،
ألا تعتقدين ذلك؟.

العزيزات مسؤولات التعليم:

لن يتذكّرَ أحدٌ أبدًا
أيّ اختبار،
ولا أيّة إعادة...
الشّعر؟ المشاريع؟ التجارُب؟ الأذى؟
سيذكرونها جميعًا،
أمّا الاختبارات
فلا.

عزيزتي «الكلبة خلف السياج»،
أنت بحاجةٍ حقًا إلى أن تهدئي الآن..
لَم تتوقفي عن النُّباح
في كُلّ مرّةٍ أمشي فيها إلى المشتل
لعامَين،
و لم أكن أسرقُ منزلك.. إهدئي.
عندما سألتُ الرّجُل السّاكنَ
في الجهة الأُخرى
ما إذا كنتِ تُزعجينَه أيضًا،
ابتسمَ وقالَ لا.. هكذا أشعَرَني بوحدةٍ أقل.
هل عليّ بعد هذا أن أقلق أكثرَ على الكلبة،
أم على الرّجُل؟.

لحظة

إلى المرأة التي سلّمَتني
ورقةً مطويّة
«لديّ ما يكفي من الوقت»
في قُصاصةٍ ورديّةٍ رَقيقة،
بلا اسمٍ ولا عُنوان-
أنتِ أوّل من خطر لي
في اليوم الأول من هذه السنة.
أين التقينا؟
ابتسَمتِ بخجلٍ، وخَطَوتِ بعيدًا.
هل تُمرّرين مثل تلك القُصاصاتِ كثيرًا؟
أم إنها كانت لحظةً فريدة؟
ربما تكونين من الصديقات اللواتي
يكتُبنَ الرّسائل
عندما يكتشفنَ أنّ هُناك
مُستمعاتٍ جيّدات.
و ماذا أكونُ أنا؟
هناك حساءٌ جيّدٌ من المُمكن طَهوُه

كُلّ دقيقة.
هناك طريقةٌ للوقوفِ والحَرَكة
بحيث لا يلتقط أحدٌ ما أنتِ فاعلة.
و هناك بحرٌ من الكآبةِ
-قريبًا جدًا تحت الجلد-
يُحِبُّ التهَكُّمَ على ليلةِ رأس السنة الباردة.
هنا، في هذا الصباح الطازج
و كل صباح آتٍ
دولابٌ من رُزَم الفوَط البيضاء
وَفير الإضاءة والاتساع.
وكُلُّ مُرَبّعٍ في صفحة التقويم
يفغَرُ لكِ
فَمَه الجائع.

شاعرات «وينيبغ» الشابّات

انطلقنَ في فصلٍ
ورقُ جُدرانه قُصاصاتُ شعر،
حتى السّقف مُغطىً بأبياتٍ
في وُريقاتٍ ورديّة وبُرتقالية...
قُمنَ بتقديم بعضهن البعض،
يَحْطُطْنَ عاليًا على مسرحٍ صغير
ليقرأن أشعارهُن، حَيّاً مُعلمتهُنّ التي
شجعتهن على التجلي، ولم تسمح لآبائهن
بحضور قراءاتهن، لأن الآباء ينتقدونهن.
آمَنَّ بالعيون الثالثة والرابعة،
العيون التي تحت العُشب؛
و في الدّبَبة القطبية البعيدة شمالًا آلاف الأميال،
و في الوريقات اليانعة تحت الثلج.
عَرَفْنَأن قصائدهُنّ كانت بهيّةً
أنّ باستطاعة طالبات الفصل الثاني الابتدائي أن يكتُبن
أفضل من طالبات الفصل الثالث أو الرابع
بسبب ما حدث

في آخر الشارع؛ مساطرُ القياس
التي ظهرت من لا مكانٍ
تختارُ وتفتح المشاهد..
الطريقةُ التي كَسَر فيها سياجُ الحديقةِ الشتاءَ،
أو الشوارعُ التي فرّقَت
الصفحات البيضاء الناعمة
التي تكتب عليها الطيورُ
بأقدامها.

ما الذي سوفَ يحدُث؟

النّحلُ والفَرَاش،
حيواتهم أقصرُ بكثيرٍ منّا.
و رغم ذلك،
يرفّون قليلًا فوق الزهور التي
لا تملك الكثير لتعطيهم.

يبدو أن «التمييز» صار أكثر فائدة
من امتلاك موهبة رائعة؛
أن تعرف أيّة طريقٍ تسلكها
عند تقاطع الشوارع،
بإبرة البوصلة التي تَرِنُّ
داخل رأسك.

احزمي خصرَكِ بكلماتٍ قليلة -الإصرار،
المرونة- حيث يعلّق البعض جوازاتهم.

لا تقلقي كثيرًا من الوظيفة التي

ستحصُلين عليها، يقول «آلبرتو».
اعملي على ما تُحبين
و ستُقضَى حاجاتُكِ.

لا وجودَ لامتحانٍ يستطيعُ قياسَ
أيّ شيءٍ هام.

في لوحة إعلانات مركز «سانفرانسيسكو» البوذي،
تبحَثُ إحداهُنّ عن «شخصٍ غَيرِ ملحوظ»
واجبه الأوّل كُلّ صباح
هو صنع القهوة.

قد يكون ذاك أنتِ.

عصافيرُ الصّباح

تجيئُ وتذهبُ
تغاريدٌ مائيّة خفيضةٌ،
تُلطّفُ الصّيفَ الظّامِئ..
لا زال باستطاعتها أن تجد بعضها البعض،
لا السماء
ولا الليالي الجافة
تستطيعُ أن تفرّقها
أو تُلزمها الصمت.
❋
رأيتَ أُمّك تنزلُ درجًا
ذاتَ حُلم،
هل تَبِعتها؟
ليس للغياب أيّ معنى،
أنتَ أكثر حضورًا من الرجال الذين أراهم.
أخبرني أيّ شيء،
أرجوك.
❋

ما أردتَه ولم تحصل عليه،
هل حُزتَهُ الآن؟
يذهبُ أحدهم
تاركًا فراغًا في الدُّرج،
و علّاقات ملابسَ تصطفق عارية،
و ملعبًا يومضُ في الذاكرة..
الذي لم يصل أبدًا
يجبرنا على الركض في كل مكان.

إنحني لِما غَرَستْ،
حبّاتُ تينٍ نَضِرة تملَأ الطّاسات،
توبيخٌ عذبٌ لنُعارِكَ
و نغلبَ كُلّ الخَرَاب الذي يصنعُهُ البَشَر.

أنا مكشوفةٌ لمفاتيح الألغاز،
لانفلات قشّةٍ من منقار طائر الكَركي
أعلى الشّجرة
بجناحٍ مُشرَعٍ
ليُظلّلَ صغاره.

أينَ كُنّا

أستطيعُ الذهاب لأيّ مكانٍ الآن
(لست في نهاية أيّة رحلة)
تبدو هذه الليلة مُشرعةً للحكايا
(الحكايا آخرُ ما نَطوي به النهار)
من ذاكَ الذي نُريدُ الوصولَ إليه؟
لا سُلّم، ولا خارطة، ولا طريقٌ حلزونيّة..
مُجرّدُ حاجةٍ للوصول بالتسلُّق وحسب.

...و ها هي العناصر التي نُميّزُها،
لا تفعلُ شيئًا نافعًا – نوافذ،
و أشجارٌ جرداء، وطاولات، وأسلاكُ الهاتف.

حُبٌّ عائلي

تقولُ إحداهُن:
سأختبئ في خزانتي،
دعوني خارج كل شيء،
لقد حان دوركم.
أتمنى أن تواجهوا
ذلك المنحدر الصخري
عند نهر «بيكوس»،
ولا جسر لتعبروا عليه..
حينها
ستعرفون كيف أشعر الآن.

هذه ليست قصة..
توقّفوا عن القول إنها
قصة.
بالأمس
كُنتُ أبتاعُ بعض الحاجيّات
و لم أستطع أن أتذكّر

ما الذي عندي منها في البيت،
بَدَى لي أن عندي كل شيء
لكنّني عرفتُ هناك
أنني بحاجةٍ
لشيءٍ ما.

الغروبُ في مَسقَط

شبابٌ يمحُونَ آثار النهار، يُمشّطون الرمل.
هُناك آلافٌ من من شِباكِ صَيد السّردين،
ولمعةٌ لأنفاسٍ أخيرةٍ تحومُ فوق الأمواج.
نداءٌ للصلاة تَنحَني له
حتى رؤوس أعشاب الشاطئ
معتمرةً أطواقها.
لا يبدو أن أحدًا من الأزواج في هذا الفندق
يتحدّثُ مع أزواجٍ آخرين،
لكنهم جميعًا يُحبّونَ القراءة.
أنا مغموسةٌ في الهدوء،
و همومهم المدسوسةُ
تتلألأ في الخُطى والعظام.
يا لهُ من بلدٍ نقيٍّ أسمر،
الماءُ شديدُ الزرقة
والمباني قصيرة وبيضاء،
وددتُ لو أنّني
أسيرُ هنا
معك.

شارع المتنبي*

«... كتـبٌ وقراطيـس، لا يزال بعضها محزومًـا في رُزَمٍ متفحّمة، متناثرة في الشارع.»
تلك الجُملةُ الفريدة التي فتنَت قارئة
لساعاتٍ، في نُسخةٍ لن تُرى مَرّةً أُخرى،
و لن يُعثَر عليها مدسوسةً في رفّ كُتُبٍ
تعودُ لصديقةِ لم يعُد مُمكنًا أن نُصادفها،
في شارعٍ لم يعُد مُمكنًا تمييّزه.

ما ينفجرُ لقطعٍ كثيرةٍ
يختفي سريعًا.
سيُسَمّون ما حَدَث
مُهمّةً ناجحة، أو
تقدُّمٌ في الأمن.

ما يبقى حيًّا
هي ساعاتُ القراءة الهادئة،
حيث يكون الناسُ في أفضل ما لم يَصيروه بَعد،

شيءٌ ما كان قادمًا،
شيءٌ جديدٌ ورائع،
شيءٌ يستطيعُ أيُّ أحدٍ أن يقوم به،
فيومِضُ الوَرَقُ
من التقليب.

* يقع شـارع المتنبي في بغداد ويُعتبر السـوق الثقافي لأهاليها حيث تزدهر فيه تجارة الكتب. تعرّضَ الشـارع عام 2007م إلى هجوم بسيارة ملغمة أدى لمقتل ما لا يقل عن 30 متسـوقًا وتدمير العديد من المكتبات والتي يعود تأسيس أقدمها إلى عام 1908م.

غموض

بَزَغَ الرّجالُ من المنجم
في عَرَبةٍ بعجلات..
فابتهج الجميعُ لهم.

في تلال أفغانستان،
وصحارى غزة،
وقُرى ليبيا،
رجالٌ يتقرفصون خلف صخورٍ
و بيوتٍ متهاوية..
ليت الناسُ يعرفون
ما يُخفون.

صمود*

محمود، هزيلٌ داخل طقم ثيابه الأنيق،
عَبَر بخُطاه حقولًا صخريّة، انحنى ليجُسّ
بتلة زهرة، لم يقطفها.
أغمضَ، ثُمّ ضمّ كفّيه لبعضهما،
عائدًا بروح الزّهرة إلى صفحات الورق.

إلى الذين لم يسيرو قط في حقل،
لا تنحنوا أبدًا،
لقد وجدَ محمود طريقةً لحمل بكاء المعزة الضائعة
و بكاء الناس
بلا تلعثم.
لا تنسَ شرائط الدمع
ترسُمُ خرائطًا على وجنتيه الناعمتين،
نظّارته الكئيبة الواسعة،
الانفعال العصبي لكتفيه النحيلتين-
كيف تنحّى جانبًا،
يدُه على قلبه،

يده الدّقيقة على ساق الكأس،
يرفع نخب الشوارع والرّيح الهائمة.
الأمهات والآباء، صامدون بلا عدالة،
يشعرون برشاقة حضوره تُسندُهم،
و إن كان يصعب عليهم الإشارة لذلك..
الجمالُ الذي لم يختاروه للنضال والحُب
ممزوجان في ماءٍ يستطيع الجميع احتساءه.
رَوعته تُقرأُ بكُلّ اللغات، رغم أن العربية
قَد امتلكته،
لقد صارَ بلادًا كاملة
تتنقّلُ في العالم، وأينما كان هو
يبقى حاكمها، ومعلّمها، ونبيّها،
هو عُمّالها المغبَرّين اللانهائيين
يقفون بمعاولهم ليُحدّقوا في ما وراء الخراب الذي يرونه،
نحو ما سوف يؤمنون به
على الدوام.

*في ذكرى محمود درويش 1942 – 2008

الفصل الخامس

عابرةً جدول الماء
إلى أيّة حصاةٍ تنظُرين؟
تلك التي تطئينها،
أم التي بعدها؟
صحيحٌ أن هذه الحصاة زَلِقَة..
لكنك لا تستطيعين أن تعبُري
دونها.

رنين

يؤسِفُنا فقُدكِ لوالدك.. يقولُ لِيَ النّاسُ،
فأخطو خارجًا لتُبلّلني
شرائطُ الغيوم الرمادية.
يدٌ تجُسُّ سكة حَديدٍ،
أنت من احتاجها، لا أنا.

تَجري الدماءُ تحت الجلد
و الزّمن، وتلك السّماءُ المُلتبسة
تجري أيضًا.
يُمسكُ الهواءُ بنا جميعًا، أرأيناه أم لم نره.
شريحةُ ليمون قوّسْتَها على حافّة كأس الشاي..
انجذابُك الغريب للثلج المجروش.

قد تأتي ريحٌ مناسبةٌ بشذىً
لأغصانٍ مشتعلة،
لماءٍ نقيٍّ على حَصَى.
قد تقومُ ضحكتُك اللّيلة

بتأثيث غُرفنا.
لا زلتُ أجدُك بطُرُقٍ لا تعرفها كما أظن،
و لم تعرفها.

كُلُّ طريقٍ، وكُلّ بحر، وكلّ شاطئ
لم تزل كلها تُحاذي ما أحبَبتَ،
و ها هو صفٌّ من النخيل السّاكن أيضًا؛
تبدو كُلّها
كما لو أنك
قد أجبتَ على الهاتف.

شيشو وإخوانه للفواكه والخضروات

كُنّا نرتشفُ القليل من ال «جِن»
في قَهوةٍ على النهر،
مُدّعين أن حيواتنا كانت
بمثل سلاسته
و روعته. وفي مرّةٍ قالَ أنه
يُريدُ رؤية دُكّان الفواكه والخضار
لمرّةٍ أخيرة. لذا،
قدتُ سيّارتي إلى شارع «لاريدو»،
لكن الدُكّان هناك كان مغلقًا
لانقطاع الكهرباء،
فقالَ أنّ هذا بالضبط
ما يشعُرُ به، فقدانُ الطاقة.
بعدها
طُفنا في الجوار محدّقين
في بيوتٍ مهدومة،
و رُكامِ نفايات وحُفَر شوارع..
و كانَ هذا ما كنتُ أشعر به.

قُدنا السيّارة عائدين إلى دكان «شيشو»
و قد أُشلعت الإضاءة
من جديد.
خَطَى داخل الدكان برِقّةٍ
كأنه يدخل مزارًا مقدسًا، ووَضَعَ يديه
على تَلٍّ من الجريب – فروت،
و لم يشتري منها حبةً واحدة.
لم يكُن يملكُ حينها
من الوقتِ
شيئًا.

بصراحة

لا أحد يملكُ وقتًا لمن تحتضر.
هُن أيضًا ليس لديهن وقتٌ لنا.
أوقاتُ غدائنا ومواعيدنا،
نومهن المتقطّع
و العيونُ المُقشّرة.

تطوفُ الطالبات في دوائر
في باحة وقوف السيارات
عند الشارع، وبالتأكيد
ليس لديهن ما يكفي من الوقت.

الدّورةُ الشهريّة الأولى
ستأتي مبكرةً جدًا،
ناثرةً جدائل الدلال.

الأُمّهاتُ بملابس الرياضة
و على ثلاجاتهن تلتصقُ قوائم الحاجيّات

و أرقام التوصيل.
الكثيرُ من أمور المعيشة لالتقاطه،
و تركه.

في النهاية
نحفُرُ لَمن تحتضرُ بابتساماتنا الدامعة،
و عَرضِنا البائس لتقديم المساعدة.
قالَ «فرانك»: لو أستطيعُ فقط
أن أعود لمكتبي، أعودُ للعمل..
ثُمّ أغمضَ..
كان ذاك سطره الأخير.
يا لها من مفاجأةٍ أن تعرف
أن أعظم مُتَع الحياةِ
تكمُنُ
في أعمالِك اليوميّة.

أمي تتبرّع بربطات عنقك

للتَوّ، في الأسبوع الفائت،
بالكادِ قد مرّت ثلاثةُ أعوامٍ
على تحليقكَ
من جسدك البائس العزيز،
دفنتُ وجهي في ربطات عنقك.
الأزرق الداكن البيروفي
بحيوان اللّاما الأبيض الصغير.
كانت تبدو مرتاحةً مع بعضها البعض،
مُتعانقةً خلف باب خزانتك.
إنها علامةٌ على وجود رجل،
عائلةٍ من الألوان البرّاقة والخيوط؛
ربطاتٌ لأدوارك الصحفية والدبلوماسية،
إنها تقول:
سنكون متفائلات في مكان العَمَل
حتى عندما نكره ما نفعله.
أو: الكولونيا تُساعدُ الرّجُلَ على الحياة..
لا يزالُ عبقُك هنا،

لكأنّ وجنتك لم تبرح كُلّ صباحٍ
عالميَ الفتي.
فكّرتُ في أن أستلّ بعضًا منها،
لكنني أحببتها ملمومة هُناك
في مكانها
حيث تركتَها.
و اليوم
عندما سمعتُ بأنها سوف تُهدَى
لدُكّان تبديل الثياب الرثّة
قُرب البحيرة،
كان عليّ أن أقف في الخارج
لوقتٍ طويلٍ
في الهواء الواسع،
بيتُك الحقيقيُّ الوحيد
لأجل كل الأيّام التي
مشيتَ فيها
بيننا.

الحربُ حلبة مصارعة

بينما كان أبي مستلقيًا يحتضر،
احتدّ قِتَالُهُ
عِبر شاشة التلفاز الذي يتوسّط غرفته
في المستشفى.

أشاحَ بوجهه بعيدًا
عن صينية الطعام،
لوّح بالوداع لقطعة اللحم التي
لم يلمسها،
و طَلَبَ مِنّا أن نزرعَ رُفاتَهُ
في الأرض،
و وضعَ جهاز الراديو المَملوء
بالموسيقى الكلاسيكية
على قلبه،
ثُمّ
أطبقَ عينيه.

راحة

هناك (Fort = قلعة) في (Comfort = راحة).
من المُجدي أحيانًا أن تختبئ في كلمة.
Subtle__Well-Being __ Book
عينان اثنتان، في المنتصف تمامًا.

كلماتك المحبّبة لا تزال موجودةً في العالم-
حبيبة، قهوة، صديقة..

عندما قُلتَ: ما الذي يمكنني فعله غير ما فعلت؟
«غَير» صارت بلادًا من الأمل.

عند البحر الأحمر
رجُلٌ يطوي بنطاله من الأسفل
يخوضُ في الماء الذي غَطّى قدميه.
قبلَ الفجر بساعةٍ
كان يتردّد، يُحدّق، ينحني..
مالكلمة الّتي كان يحملُها؟ قبلَ أن تُغنّي الشمس،

و تذهبُ الأشياء كلها إلى القرنفلي والذّهبي.
شاطئ. رجُل. تركواز.
لم ينظُر أبدًا نحوي.
عُصفورُ زمّارِ الرّمال.
الجَازُ وحدَهُ
-عند نهاية حياتك-
ما يجعلك سعيدًا.
مُشرِقٌ، وَحيدٌ، نهار.

يرى النّحلُ وجهَكِ وردةً غريبة

طائرُ ناشفيلي المُغرّد
يراكِ شجرةً مُرعبة.
تبدين لثعابين الحدائق الزّاحفة إلى السّوسن
كعاصفة.
البيتُ المنبوذُ يستقبلك كطبيبةٍ محتملة.
تكنسين فُتَاةَ الطعام عن الفئران،
ثم تديرين ظهركِ.
الأطفالُ في الجزء الآخر من العالم يرونكِ لامعة.
المُكتئبة ترى ابتسامتكِ تهديدًا لها.
الَولدُ عازفُ الرّاب الصّاخب
لا يرى المرأةَ العجوز سوى تحديقةٍ للوراء.
البحر، السماء، الهواء.. يروننا كإزعاج..
و هم على حقٍّ بالطبع،
نحن ننظُرُ لبعضنا البعض كما ننظُرُ للمعالم التاريخيّة،
التاريخُ لا يرانا، لا يرانا على الإطلاق.
و من هذا
علينا أن نستخلص أونصة واحدة على الأقل
من التحرُّر.

طولُ المَوجَة

لم يكُن أبي يطهو كثيرًا. لكنه أصدرَ كِتابَ طَبخٍ مُحبّبٍ سمّاه: مذاقُ فلسطين، وقد نفدت طبعاته الأربعة جميعها. بعد عامٍ ونصف على وفاته، وجدَت صديقتي إحدى أواخر قوائم حاجيّاته في مِعطفٍ أحمرٍ كنتُ سأتبرّعُ به.

هل تعودُ هذه لأحد؟ لوّحَت بها صديقتي.

طماطم طازجة، صلصة طماطم..

خَطّهُ الدّقيقُ الرّفيع -كأنه مطبوعٌ لا مخطوط- لسَعَني. الزُّخرُف والأناقة في لغته الكتابيّة الأولى، العربية، تجدُ ما يُقابلُها في حروف ال(O) وال(L) المُشكّلة لـ(Olive Oil)- لكن الورقة البيضاء المطوية مرّة واحدة من المنتصف تمامًا، تقولُ أنا أمريكيٌّ مُرتّب. كل شيءٍ يتهاوى في العالم وفي جسدي، لكنني سأذهبُ لدُكّان الخضروات، سأبتاعُ نوعين من الطماطم والفليفلة وأصابعَ الجزر الصغيرة التي جهّزها أحدهم، وسأقومُ بمزج شيءٍ لذيذٍ يهبُني الأمل من جديد.

كنتُ من شجّعته بالتأكيد.. لهذا وضع هذه القائمة في جيب معطفي.

أنا ممسوسةٌ بتلك الملاحظة الجانبية عن الروبيان في الحَسَاء الّذي كَبُرَ وهو مولعٌ به حتى النهاية- بُخار، ضع ثلجًا (ice)- وقد أخطأتُ في قراءة تلك الجملة في البدء -بُخار، ضع الرُّز (rice)- لقد

كان عربيًّا، يضعُ أشـياء كثيرة في الرز. لم يكن الروبيان جزءًا من أطباقه لسـنواتٍ عديـدة. لكنه عندمـا اقترب مـن النهاية، في الفصـول المُريعة للعيادات والتفاصيل الطبيّة، توسّعَ في أطباق العشاء حتى وقعَ في حُبّ عشـاءٍ حَيَويٍّ مكوّنٍ من وعاءٍ واحد، كان فخـورًا بطهوه لأمي، لأبنائه وأحفاده، وَلأيّ زائر.

على الرغم من امتلاكه الكثيرَ من الوقت ليكتب لنا رسائل وداع، لكنه لم يفعل. رَجُل الكلمات- ولا حتى مع السلامة.

وصيّته لي هي آخرُ كلمةٍ كتبها هُنا:

البقدونس.

أنتَ ومَن يؤثرك

(2005)

ترفو وتدرُزُ، وتحيكُ الكروشيه

«يوم الأم 1999م»

في حُضنها كُمٌّ قصيرٌ ومُقلّمٌ
بالأبيض والكُحلي،
تحيكُ الغزلَ بعناية الإبَرِ
من الجهتين.
تُذكّرُني بنساءٍ واسعات النظرة
ممتلئاتٍ بالحكمة
لطالما ادّعيتُ قرابتي بهن
بين الناس.

على المقعد بجانبها
صوفٌ أصفرٌ مفلولٌ
يتناهَضُ مكوّنًا قُبّعةً
تتدلّى منها كُرة خيوطٍ للزينة.
تبدو هذه المرأةُ صغيرةً على الحياكة.
و كم سعيدةٌ أنا لأنّ التاريخ لم يُضِع هذه المهارة،

فيا للعطف الطاغي الذي تغرزه
بصنّارتها الفضية.

و أخبريني،
متى كانت آخر مرّةٍ
رأيتِ فيها امرأةً تُقطّبُ جَيْبًا
إلى قميص كتّانٍ رماديٍّ
في مكانٍ عام؟
آلَت على نفسها أن تُخفي آثار غُرَزها،
و الكشتبانُ في إصبعها
له رونقٌ في الضوء.

في يوم الأم هذا،
ثلاث نساءٍ لا يعرفن بعضهن
يجلسن منقاداتٍ بتلك الصّنعة الرّهيفة
على مقاعد متلاصقةٍ
في الرّحلة بين «لا-غارديا» و«دالاس».
و بقُدرةٍ أعجَزُ عن تفسيرها
لم يتبادلن الحديث إطلاقًا.
ثلاث إبَر خياطةٍ مختلفةٍ
و ثلاث مقصّاتٍ صغيرةٍ

(في الأيام القديمة التي
كان يُسمَحُ فيها بحمل المقصّات والسكاكين)،
و مَن عداهن في الطائرة
تأخذه الغفوة على صحيفة التايمز.
و عندما قدَّمَت مضيفة الطائرة لهُنّ نبيذًا مجانيًا
احتفاءً بالمناسبة،
لا تظنين أبدًا
أنهن أسندن ظهورهن للوراء
و تبادلنَ الحديث لدقيقةٍ
أو حتى تبادلن بعض تصاميم الكروشيه..
فقد كانت فُرقَةً باهظةً ومهيبةً
تلك التي اجتاحتهن عن العالم من حولهن.
كُنّ يرشُفنَ بأعين مغمضةٍ
و لم يقُلن لبعضهن: (رائعٌ غزلكِ)
أو: (أنظري لهذا)،
أو حتى: (عسى أن يمتدّ صوفُك أبدًا،
ولا ينقطع..).

آخرُ سويعات أغسطس
قبل حلول العام 2000م

حريرُ الرَحمة مجدولٌ،
و طويلٌ غُصنُ الظّهيرة،
و الشّمسُ تستعجلُ بنفسَجَ الزّهر
يبزُغُ من سيقان النباتات التي طهتها الشمس.
و هل من بَرَكَةٍ أَعَمُّ من المشي دون عجلةٍ
تحت الأشجار؟
حاملةً دلوَ ماءٍ للزّهرة التي انثنت حينها
و صارت بيتًا، بسقفٍ وحيطانٍ من كُرُوم-
تستطيعين العيشَ داخلَ الزّهرة.
جدولٌ ينسكبُ بطيئًا
حول شجرة الأناناس العتيقة
و قد توّجتها ثمارها الشّائكة،
و ظننتُ أننا سنشيخُ
بحلول العالم 2000م،
و ظَنّ السيّد «والت - ديزني»
أن السيارات حينها
ستطير.

كم هو دراميٌّ أن نبقى نُفكِّرُ
بآخر صيفٍ قد يمُرُّ علينا،
أو آخر عيد ميلادٍ لنا
قبل أن يتم تصفير التقويم.
تقولُ جارتي أن كُلّ ما نزرعه
سيبقى بحلول سبتمبر
كما هو للأبد؛
إنها تصُفُّ أحواضَ زَرعٍ صغيرةٍ
أمام ممشى بيتها.

أُريدُ أن أعرفَ الجذرَ الذي امتدّ عميقًا
في كُلّ ما مضى حتى الآن،
تستطيعين أن تمُدّي خرطوم المياه المثقّب
عِبرَ حياتك كلها، لترين أنّ هناك شيئًا
تحت طبقات فصول الصيف
المحتشدة في الأرض،
تحت العُشب الذي في مَهَبّ الجفاف..
شيئًا
ينتظرُ البلل.

دلو

أبقَيتِ عينيكِ مُطبقتين لأيّام وأيّامٍ
بعد ولادتكِ.
لم تُريدي أن تأكُلي أو أن ترينا.
ينتظرُكِ الكثيرُ لتقومي به،
تنتظرُكِ جبالٌ لتتعرّفيها.

هطل علينا المطر ذاك العام،
يوميّاً، في شهر يونية،
و اغتسلت السيّارات بجداول من المياه،
و شعرتُ بالوحدة من دونِكِ
داخل جسدي.

قالت لي إحداهن:
تجوّلي في الحَيّ دون طفلتك،
و اذهبي للحي المجاور أيضًا..
ارتاحي قليلًا.
لكن في النهر الفائض خلفَ يتنا

غَرِقَ رجُلٌ رَثٌّ
تاركًا سمكةً في دلو؛
ماالخطأ الذي اقترفناه جميعًا
ليحدث لنا ما يُشبه ذلك؟

هاتفتُ الممرضات في المستشفى
و أخبرتهن كم اشتقتُ إليهن. وقالوا لي
كيف أرفعُكِ عندما تكونين غارقةً
في كَونك العميق ذاك
كَونك الذي بلا كلمات،
قالوا أن عليّ أن أنتظرك حتى تجوعين
لتخرجي إلي.
هل تشتاقين لعالمك ذاك؟
بالمناسبة،
ترتفعُ أمطارُ عالمنا هذا في بعض الأيّام
إلى ستة إنشات.

ميلاد

يومٌ وحيدٌ تُضيءُ فيه
من بين جميع النساء والرّجال..
إنه هذا اليوم الرّقيق الذي
لم تعُد أُمّها تحياه
منذ سنواتٍ طويلة؛
الامُّ التي انحنت مرّةً على المائدة
لتُرتّب الأشواك الفضيّة والملاعق
للحفلة.
المائدةُ نفسها التي لم يُسمَح لها بالحَبو تحتها،
و كانَ مَدْعَاةً للتجهُّم أن تنفُخَ، مُطفئة الشموع..
هناك أمورٌ عديدةٌ كانت مدعاةً للتجهُّم
في الأيام الأولى التي شكّلَتنا..
و الآن،
مُحاطة بأصدقاء يُحبّونها،
بأحاديثٍ غنيّةٍ وقِطَعٍ من الجُبنة حادّة المذاق.
تُدركُ حينها أننا بطريقةٍ ما
صنعنا من حيواتنا ما له معنى،

و أنّ تلك السنوات التي ظننا أنها لن تعلق في الذّاكرة،
قد عَلِقَت..
و ها نحنُ الآن
كِبارٌ
كالنّاس في القصص؛
أُناسٌ في الغابات
يُحرّكون الأعشاب دومًا
في حسائهم.

ريّان

أن تتحرّكي خالية
دونَ حاجةٍ لأن تكوني
في أيّ مكانٍ آخر.
أن لا ترغبي بأيٍّ مما
تعرضه المتاجر.
أن ترفعي شيئًا يقبعُ عندكِ
منذ زمنٍ
و تضعيه في مكانٍ
جديدٍ عليه.
عَيْنٌ استيقَظَت للتوّ
ريّانةً ترى.
ما الذي تفعله نظراتها
للدماء القديمة الجارية
في شراييني.

اليوم

فاتني اليومُ الذي
قيل فيه بأنّه
ليس من حق الآخرين امتلاك أسلحةٍ معيّنة،
بينما نحنُ الأميركيون
نملكُ هذا الحق.
ليس ذلك وحسب، بل يجب علينا امتلاكها،
و أن نسعى لذلك.
فاتَني ذاك اليوم؛
هل كنتُ نائمةً؟
أو كنتُ ربما أحفرُ في الحديقة،
أو أقومُ بأيّ أمرٍ بسيطٍ وبطيءٍ
كعادتي.
أو ربما لم أكُن قد وُلدتُ بعد.
ماذا عن كُلّ البشر الذين لم يولَدوا بعد،
من سيُخبرهم؟

مُقابلة، المملكة العربية السعودية

لا يعرفُ الآباءُ ما الذي اقترفه أبناؤهم،
إنهم ينتظرونهم أن يُهاتفوا بيوتهم،
ليخبروهم أنّ هناك خطأً ما،
أنّهم بريئون.
لكن أبناءهم هناك، في أحد الشوارع،
يلبسون سراويل بيضاء قصيرةٍ
و يمشون متفاخرين
في عالمٍ يُحبّونه؛
البُرتقالُ يُقشّرُ باليد،
و البصلُ مُعَدٌّ
و الرّخامُ مُعفّرٌ بالتُراب.
و أيًّا يكُن ما حدث
فقد كان برّاقًا ومدويًّا.

كان أحدُ الأبناء حزينًا أغلبَ الأوقات،
و لم يعرف أحدٌ السبب.
قال عنه أخوه: (مستحيل، لا مجال لأن يعرف كيف يقود طائرة).

ترمُشُ أجفانُ الآباء بالدّمع،
و قد أُسقِطَ في أيديهم.
أرجوكم، أخبروا الآباء أمرًا أحسن؛
أنّ أبناءهم ذهبوا للمدرسة،
أنّهم طبيعيون وطيّبون،
و أنه مهما كان ما حصل،
لا تزال هناك فرصةٌ
لتدارُكه.

الضّوءُ الذي شَعّ صَوبَنَا الآن

التلألؤ الغريبُ الذي ينتابُكِ
عندما تكونين على حَق؛
بُقعةُ ضوءٍ حادّة الحواف.
و تسألُ طفلةٌ ضئيلةٌ: ما الذي كان باستطاعتنا فعله
غير ذلك؟
ماذا؟

ثلاث فتياتٍ يحملن حقائب كتبٍ
و يتحاشين الدبّابات.

الآنَ وقد تمرّسنا الاستعراض،
الآن وقد ادّعينا أن الله
يُحب بعض أشكال القتل،
كيف نعودُ أهلًا لأضواء الشموع،
لوهجٍ ناعمٍ ينسابُ من مصباحٍ صغيرٍ
على طول الفراش الآمِن؟

يتيمةٌ بقميصٍ مُقلّم،
يتيمةٌ عالقةٌ بين عمّين عابسين.
إنها تحملُ شذى أُمها الناعم،
و صوتَ أبيها الأجش،
إذ لم يكونا لها بَلَدَين وحسب،
كانا قارّتين.

موسيقى

عندما أردتَ بيانو،
أرادَ الجميعُ أشياء مُختلفة؛
تمنّت أختك فُستانًا أحمرًا مُرقّطًا
من الحرير،
و ابتغت أمك ساعة يدٍ ذهبيّةٍ
لتحتفظ بالوقت الذي لم يكُف عن الرّحيل عنها
قبل أن تجده.
و حتى والدك،
الذي قضى الساعات يحسبُ الأرقام
في دفتر الإحصاء،
أرادَ سيّارةً عُشبيّة اللون
بعيونِ إنارةٍ جامحةٍ،
و ستائر لا تلتصق بنوافذها.

و كان هذا الدّرس الأوّل.

هكذا رسمتَ مفاتيح البيانو على ورقة

و عزفتَ عليها في الظلام،
مُغنيًّا النغمات.
و لو دُستَ بقدمك
لشعرتَ بمكابح البيانو
قريبةً من السجّادة،
و لسمعتَ همهمةً تمتدُّ لأبعدَ من نفسها
كما يحدثُ تمامًا عندما تعزفُ في المدرسة؛
حين يغادرُ الجميع حصّة الموسيقى
و تقفُ أنت متشبثًا بآخر نغمةٍ
مُفرِغَةً نفسها في الهواء..
لا تختفي ولا تسيل من أذنك
حتى لو أملتَ رأسك.

صادفَ أن والدك عَثَرَ
على ورقة مفاتيح البيانو
و صفعك
لتبذيرك الورق.

و هذا هو الدرس الثاني،
و قد كان طويلًا.

غريبتي المثاليّة

تلك الفتاة الصغيرة عند بوّابة مطار «سينسيناتي»، لها ربطة شعرٍ زهريّةٍ تعقُدُ بها ذيلَ الفرس الطافر من رأسها ذو الشّعر البني. تساءلتُ: كم تطلّب منها الأمر راجيةً أمها لتعقد شعرها هكذا. كانت في الخامسة من عمرها تقريبًا، مرتديةً فستانَ حفلاتٍ أبيضٍ كثير الشرائط. اتضح لي، عندما اعتلينا متنَ الطائرة، أنها تجلسُ إلى يميني من الأمام. دَسّت في الفاصل بين المقعدين وجهها اللطيف قائلةً لي: (هل عندك طاولةٌ ترتفعُ من يَد مقعدك؟)، (هل قلتي شيئًا؟). كان مقعدها ثابتًا ومُجهّزًا بطاولة طعامٍ مخفيّةٍ في يَد المقعد. ضحكتُ: (لا. لديّ طاولةٌ عاديّةٌ ملتصقةٌ بظهرِ الكرسي أمامي). قالت: (آه، يا لسوء حظّك!). عندما راحت مضيفة الطائرة تُلقي تعليمات السلامة عِبرَ مُكبّرات الصوت، كانت البنتُ تُعلنُ إجاباتها عاليًا؛ تقولُ: (على الرّحب!) لـ(شكرًا لطيرانكم معنا)، و(أتمنى أن تستمتعوا أنتم أيضًا بالرّحلة!). وعندما حاوَلت أمها أن تُخفضَ من صوتها، قالت معترضةً: (و لكنّكِ قُلتِ أنّ عليّ أن أُجيبَ النّاس). فقالت أمها: (تلك المضيفة تتحدّثُ للجميع، لا لك وحدك). أقلعَت الطائرة نحو «سان فرانسيسكو»، فنظرَت الفتاة للأسفل إلى «سينسيناتي» قائلةً: (آه، ماما!) وراحت تبكي: (نسيتُ أننا نعيشُ في متاهةٍ، أنظري كيف يبرُقُ العالم!). وامتلأت عيناي بالدمع. أحيانًا،

لو كُنتِ محظوظةً، ستجلسين في رحلةٍ ما خلفَ شاعرةٍ. قلّبَت الطفلةُ صفحات الإعلانات الغريبة في مجلّة الطيران، وسألَت أمها: (ماما، عندما نصيرُ أغنياءَ يومًا ما، هل سنبتاعُ هذا كُلّه؟). أوه يا عزيزتي، اعتقدُ أنك غنيّةٌ الآن. ثم دسّت وجهها بين المقعدين مجددًا، وأَمَرَتني: (جِدِيني الآن!). كانت تعني أن عليّ تخمين أيّ الكرسيين ستُطلُّ منه لاحقًا. بعدها، حدَّقَت فيّ مليًّا. قالت: (أظن أن عليّ أن أرسم لك صورةً، تبدين مُنهكةً، هل أرسم لك واحدة الآن؟ ماذا تريدين؟ يبدو أنك بحاجةٍ إلى شجرة!). لكنها رسمَت وردةً زرقاء بوريقاتٍ خضراء طويلةٍ بطول الشّخص الذي يقف إلى جانبها، الذي يرتدي نظّاراتٍ كالتي أرتديها. ثُمّ سألَتني كيفَ أنطق اسمي، وكَتَبَت أعلى الورقة: (إلى نعومي، مع الحُب. ليلى). آهٍ يا ليلى، أردتُ أن أهمسَ في أذنكِ أنّ ما بيننا أكثر من مُجَرّد رحلة. اللهجة المألوفة للشّرق الأوسط، تُطَعِّمُ صوتَ أُمّها. تمنّيتُ في طفولتي لو أن أهلي أسموني ليلى. ما الذي كان سيحدث لو أنني كشفتُ لتلك الفنّانة المفوّهة عن رابطنا الإثني المشترك؟ إن صوتها نايٌ، قد يُصَعِّدُ الخَبَرَ: (نحنُ عَرَب!) على متن الطائرة. لم أُخبرها بشيء. لكنك، يا ليلى، أسعدتِني. (بالمناسبة، احتفظتُ بوردتك).

وقـــود

(1998)

كعكة الزواج

سألتني* امرأةٌ في الطائرة
أن أرعى طفلتها لبعض الوقت
ثم غابت.
قلت لنفسي أن ليس في الأمر خطورة،
إذ كم يمكنها الابتعاد أصلا
و نحنُ في الطائرة؟

عادت بعد ساعةٍ وقد بدّلت ثيابها
و غسلت شعرها
حتى أنني لم أعرفها لأوّل وهلة.

و بحلول ذلك الوقت
كُنتُ قد تفحّصتُ والطفلة رقابَ بعضنا البعض
و قد بكينا قليلًا.
أرتدي أساور فضيّة وساعة يد، وترتدي الطفلة أقراطًا كالأزرار
ذهبيّةً ولامعة، وفُستانًا أبيضًا صغيرًا يتبرعم إلى طبقاتٍ
تجعله يبدو مثل كعكة عرس.

لم أكن أريد إعادتها
لأمها.

ضفائر الفتاة التي لُفّت وثُبّتت بإحكام إلى رأسها
أبجديّة أخرى؛
أقرؤها: «بكارة، بكارة، بكارة..»،
«لقد تعبت أمي»،
«سأقضم يدك!».

هكذا تركَت تنّورتي مُجعّدةً،
تركَت حُضني يتألّم.
و الآن صرتُ حارستها السريّة،
حَبكَةُ الحُلم الصغير الذي يرتفعُ قليلا
ولا يأخذ في الوضوح أبدًا.

و هي تكبُرُ
سأظهَرُ لها حين تشعُرُ بأقلّ سوء.

أذكّرها بالذي تنساه. مَن ستتزوّج؟
من الأفضل له أن يناقش الأمر معي!؛
سأقول له بأنها حلَّقَت، مرّةً، بادية مثل كعكةٍ

بينَ شَرشَفَي طاولاتٍ من غيم...
و أنّها تستطيعُ أن تُعيدَ البطاقة إلى جيبها ثم تخرجها من جديد...
و كانت تعرفُ سَلَفًا
بأن الإصبع الصغيرةَ أكثرُ مرحًا
من الذّراع كاملة!

* كُتبت هذه القصيدة بعد عشر سنوات من وقوع أحداثها. كانت الشاعرة على رحلة تقفُ مؤقتًا في السعودية، ولم تنسَ شكل الطفلة وقد حجَّبتها أمها نازلةً من الطائرة.

لأنّ المكتبات موجودة، نستطيع قولَ مثل هذه الأمور

تضُمُّ الكتابَ قريبًا إلى جسدها
تحمله للمنزل
سائرةً على ممشىً مُتصدّعٍ
أسفلَ تَلٍّ مُتشابك الأغصان...
و لو ركض نحوها كلبٌ مرّةً أُخرى
فستتخذُ من الكتاب درعًا.

حَدَّقَت طويلًا في الصفوف الممتدة للكتب
لتجد هذا الكتاب.
عندما يتحدثون عن المال،
عندما يُقضى النهارُ في أماكن حارّةٍ وبعيدة،
تَلِجُ في كتابها؛
سريرٌ برتقاليٌ في انتظارها، قصّةٌ بلا زوايا،
ستحيى بين عائلتين تتناولان الوجبات في أوقاتٍ مختلفة.

جازَت، حاملةً كتابها، مركز إطفاءٍ
و متجر الخمس هلَلَات.
ما لم تهبه لها هذه البلدة
يهبه لها الكتاب؛ شاةً رُبما،
و بَرّيّةً من الاحتمالات الجديدة.
لقد خَبِرَ الكتابُ سَلَفًا متاعِبَهُ،
و له وجهٌ هادئٌ، مع هذا، وظهرٌ مُستقيم.

عندما تعودُ الخُطى أدراجها
نحو مكانٍ لم تسترح أبدًا إلّا فيه..
عندما يُركّبُ كبارُ السّن آلات حلاقتهم،
لن تجلسَ وحيدة،
فلديها كتابٌ لتفتحه، وتفتحه، وتفتحه.
ها هنا حياتها
تبدأ.

حبيبي

1.

أقتسمُ من هنا
قطعة الرغيف هذه
مع شَبَح الخبز في لبنان.
المداخل منهارة بين الجدران الحجريّة.
لأحدهم إبريقٌ للشّاي قد تفتّت.
و لأحدهم أُختٌ قد جُرِحَ أعلى حاجبها الأيمن.
هكذا صار شايُنا الآنَ بلا سُكّر،
و تتشقّقُ الفراولة هنا، تُمسي عَفِنَة،
و تنمو كُلُّ تفاحةٍ، بمرور الليل، مكدومة.
يا لبنان
أعقدُ خيطَ حذائكَ طوال النهار من هنا
من «تكساس»؛ ماذا لو سماءنا التي
لم تُمطر منذ أشهر
أمطرت علينا جبال لبنان وأشجارها؟
و ماذا لو صار الهواء رطبًا من أسماء الأمهات؟

و ماذا لو أن الأصوات الرنّانة الصافية لأطفال الابتدائيّة
قد لبسَت خريطة لبنان مثل درع؟

حين زرت خيام المعارضة بالقرب من الجولان الوحيد،
ناظرةً شمالًا نحو سوريا ولبنان.
كان هناك غُصَينٌ ينمو مُتورّدًا في علبة قصدير،
و امرأةٌ بإليتين عظيمتين مثل أمي، قالت لي: اتبعيني.

2.

أحدٌ ما كان هناك. لم يعُد من أحدٍ يقف هناك..
إذ في المكان الخطأ، ممسكًا بصبيٍّ صغيرٍ يحملُ ندبةً ضئيلةً كالقمر على خدّه،
و قد شَرِبا للتوّ ماءً من كأسٍ مُشتركة، الأوّلُ رجُلٌ ناضجٌ والآخر أصغر منه،
لم يُعطيا الأمرَ بالًا، أو أنهما قد عَرَفَا ما سيحدث مُسبقًا،
تخيّلا أنه قد بقي لهما من أعمارهما سنواتٍ مختلفة العدد،
إلّا أن لعبة التخمين هذه قد انتهت عندما طارت أيديهما في الهواء حتى صارت هواءً.
أَحَدٌ كان هناك، ولم يعُد هناك لسببٍ ما.
اثنان كانا هُناك.

3.

صديقنا من تركيا يقول أن اللغة رقيقة
و يُشبّهُها بالحبيبة.

ستكون صغيرةً وتتنفّس
و لن نُزعجها على الإطلاق.
نضُمُّ شفاهنا على مقاطعها الصوتية.
لا شيء غيرها سيحمينا الآن،
إنها تُريدُ لكلمة «معًا» أن تحيى في كل منزل.

قال لي طفلٌ مرّةً

تعيشُ الموسيقى داخل قدميّ،
و تنبعثُ منّي عندما أتحدّث.!

❋

سأبعثُ بهدايا عيد الحُب لأُناسٍ
لا تعرفينهم حتى.!

❋

يجعلُ كعك الشوفان حلقي
يعدو كالفرس.!

❋

يُبقي الكبارُ أقدامهم على الأرض
عندما يتأرجحون- أكره ذلك.!

❋

أنظري الى توأم حرف ال(O) بخَطٍّ في المنتصف
التوأم الذي يُكتب هكذا (Good-Bye)!.!

❋

لا تقولي كلمة «السبب» مرّةً أخرى،
دعينا نرمي هذه الكلمة من النافذة.!

لا تتحدثي كالكبار معي،
إني أحمل صندوق الوجوه خاصّتي،
ولو أردتُ تغيير وجهي لفعلت.!

*

تلاشى الأمس،
و الغدُ مكتوبٌ بخطٍ عريض.!

*

عندما أكبر، ستبقى أسمائي القديمة
قاطنةً في المنزل،
حيث نعيش الآن.
سآتي لأزورها.!

*

إحدى عيناي وحسب هي المتعبة.
لكن عيني الأخرى وجسدي كله في كامل نشاطهما.!

*

هل صحيحٌ أن المعادن كلها كانت سائلةً أساسًا!
هل يعني ذلك أننا لو اشترينا سيّارتنا مبكّرًا قليلا
لكُنّا قد استلمناها
في كأس!

*

هُناك سُدادةٌ في ذراعي،

لن تسمح لي بأن أتقدّم في العُمر أكثر،
سأبقى هكذا أبدًا، صغيرًا.!

*

سأصيرُ بِركةً غزيرةً أيضًا.
انتظري. انتظري وحسب. ما هو عمق النهر!
هل يستطيع غمر أطول رجُلٍ في الحياة،
و يداه مرفوعتان في الهواء!!

*

رأسُكِ هديّة تذكارية.!

*

كنتُ لازلتُ أستطيع أن أراكِ حقًا فى الواقع
عندما ذهبتِ إلى نيويورك،
تمشين داخل رأسي.!

*

سأدعو نحلةً للعيش داخل حذائك.
ماذا لو وجدتِ حذاءك يومًا
مليئًا بالعسل!

*

ماذا لو رنّت الساعة وقالت: السادسة واثنان وتسعون دقيقة،
بدل السادسة وثلاثون دقيقة!
هل سترتعبين!

لساني آلة غسيل سيّارات،
للملاعق.!

*

هل تستطيع خيوط الشّعريّة
السباحة!

*

أصابعُ قدميّ قواميسٌ،
هل تحتاجين كلمة ما!

*

منذ الآن، ولاحقًا، سأشربُ الحليب الأبيض وحسب
في السادس والعشرين من يناير.!

*

ما الذي تعنيه علامةُ الطّرح!
لا أريدُ أن أطرحكِ أبدًا.!

*

فقط تخيّلي- لم يرَ أحدٌ من قبل
داخل حبّة الفول السوداني هذه من قبل!
يبدو من الصعب أن تكون شخصًا.!

*

أحبك ولا أحبك-
أليست هذه هي السعادة!

الطفل نائم

يدُسُّ طفلٌ يديه طوال اليوم في جيبيه؛
تذاكر، وشريط، وحجارة كريستالية، ودولاران.

لن يرتدي أبدًا بنطالًا دون جيب،
إنها مسألة شرف.

ينام عميقًا، عمق طقطقة نار الحطب،
و أنفاسه تأتي من بحرٍ نائٍ.

أينك؟ في أيّ عالمٍ أنت؟
لا تقم بأيّ أمرٍ
دون علمي؟!

النّاهضُ مُبكّرًا

وجهُ الساعة في الرّابعة صباحًا
لا أصدقاء له.
و أمانيه هَيّنةٌ ومُظلمة؛
أن يبقى متواضعًا وقريبًا من الأرض.

أصيرُ من دونه كِسرَةَ كَلامٍ
مُلقاةٍ على صَحْن..
يَفُضُّ النهارُ كيسَ أعماله الحزين،
و تفقد المكنسة شعرتين أخريين..

من دونه، أُمسي حاملة رسائل؛
تلك التي توصلها،
ولا تصلها منها
أيّة واحدة.

مُختبئ

لو وضعتُ ورقة نباتٍ تحت صخرة
ستصبح في اليوم التالي غير مرئيّةٍ تقريبًا،
و كأنّ الصخرة قد ابتلعتها.

لو دسَسْتِ اسمَ محبوبكِ تحت لسانكِ
لوقتٍ طويل،
دونَ أن تنطقي به، سيصيرُ دمًا،
تأوّهًا،
في النَّفَس الصغير المسحوب من الهواء
المُختبئ في كل مكان
تحت كلماتكِ.

لا أحد يرى الوقود الذي
يُغَذّيكِ.

في انتظار إذن العبور

رجُلٌ يُغلقُ كفّه بشدّة.
لن يُرينا المشبك الفضي الذي
أزاح عنه تُربة أرض الحديقة.

رجُلٌ يقرأُ البيوت،
يستوعبها بشكلٍ ما؛
أضواء النوافذ نَحْوٌ وصَرف.
إنه يبحث عن حكايةٍ ليصير جزءً منها.

رجُلٌ لا أصدقاء له.
تتقلّصُ أُمّه الطاعنة جالسةً
إلى طاولةٍ بكُرسيٍّ واحد.
إنها تحلُمُ بفأرٍ
لهُ رأسُ ابنها الصغير.

رجُلٌ يشعر أنه على حَقٍّ دَوماً.
الآخرون على خطإٍ قطعًا.

و العالم؟ لا يعنيه أبدًا.

يُحدّق رجُلٌ بحدّةٍ
إلى وجوه الرّجال الآخرين
على جَنَب، وخلفهم السماء.
يعرفُ أنه أَحَدُ خمسة رجالٍ
يصطفّون في الزاوية.

السّائق

قالت لي إحدى الطفلات:
لو أنني انزلقت بلوح التزلج
بسرعةٍ كافية،
فإنّ وحدتي لن تستطيع اللحاق بي.

إنّه أفضلُ عُذرٍ سمعته أبداً
لتكون بطلاً رياضياً.

فكّرتُ الليلة
و أنا أُديرُ بقدمي عجلات درّاجتي
عابرةً شارع الملك ويليام،
فيما لو أنّ كلامها ينطبقُ على الدرّاجات أيضاً.

يا لَه من نَصرٍ أن تترُكي وحدتك
تلهث واقفة عند منعطفٍ خلفَكِ،
و أنتِ تندفعينَ حُرّةً إلى غيمةٍ من ورود الأزاليات،
بتلات ورديّة لم تشعر أبدًا بالوحدة،
ولا تُعيرُ أدنى وزنٍ
للبطء الذي تتساقط فيه.

يُقْسِمُ ابنُنَا أنّ جسدَه
يحملُ 102 غالونًا من الماء

عمليّةٌ خاطئةٌ في خَانَةٍ ما، قَد تَحْرِفُ ناتِجَ المُعادلة
تنقلبُ القِسمَةُ ضَربًا، وحينها
يُصارعُ الإبنُ أبوَيهِ الذين يُخطّئان نتيجته التي يُصرُّ عليها:
لقد حَلَتُ المسألة
و قال الأستاذ أنني مُصيب!.
ضوءٌ يصعقُ السّبورة،
ضوءٌ نقفُ على بُعد سنواتٍ من مصدره.
هل تتذكر إبريق الحليب ذاك؟ يستحيلُ أن تحمل مئةً مثله في داخلك!

لكنه يعرف. يعرف دائمًا. نحنُ أغبياء و دون أوراق عملٍ تعيننا.
لا تتذكّر أمّه أبدًا ما هو الميغا-بايت،
أما والده فقد غاب عن الوعي في إحدى الطائرات وضربَ رأسه
بعربة المشروبات. نحن لطفاء لكننا لسنا دومًا أذكياء.
هذه حقيقةٌ عليك العيش معها، أنّ عندك أبوان.

لاحِقًا وفي لحظةٍ هادئةٍ
أعادَ والده إجراءَ المُعادلة
و اتضح أن ما قاله ابننا كان صحيحًا.
لسنا نحمل شلالاتٍ هائلةٍ داخلنا،
نحن جداول سائرة،
بِرَكٌ رائقة،
حيثُ تغُطُّ كأسك المعدنية القديمة
تلك التي تأخذها معك إلى رحلات التخييم،
تلك التي ليس بمقدور أحدٍ
أن يكسرها.

حقيبـةٌ حمـراء

(1994)

العربيّة

توقّف الرجل ذو الأعين الضاحكة
عن الابتسام، ليقول لي: (لن تفهمي الوجعَ حتى
تتحدثين العربيّة).

للأمر علاقةٌ بمؤخّر الرأس؛
يحمل العربي في مؤخّر رأسه حُزنًا
تفلقه اللغة وحدها، فيما يشبه نقر حصىً نائحٍ.
ثُمّ هَمَسَ: (متى ما تحدّثتها
تستطيعين متى شئتِ دخول غرفتها؛
حين تسمعين في البُعد نغمًا ما،
أو تناهى إليكِ قَرعُ طبولٍ لعُرس أَحَدٍ غريب..
ستطفحُ آبارٌ تحت جلدك، مطرٌ داخليٌ،
ستنبضُ فيك آلافُ الألسنة. سترين أنّك قد تغيّرتِ).

توقّفَ الثّلجُ في الخارج،
في أرضٍ يندُرُ أن تتساقط عليها الثلوج،
شَعُرنا بأيّامنا تنمو بيضاء في سكون.

ظنَنتُ أن ليس للوجع لسانٌ، أو أنّ له الألسنة برُمتها،
كتُرجمانٍ أعظَم، أو غِربال.
أُقِرُّ بعاري، بوقوفي على شَفَا العربية؛
أشُدُّ خوصها الثريّ
دون أن أعرف كيف أحيكُ حصيراً.. أفتقدُ الموهبة؛
صوتها، لا إحساسها.

جَعَلتُ أنظُرُ خلفَهُ
باحثةً عمّن أتحدّثُ إليه سواه،
مُستعيدةً صديقتي المُحتضرة
و هي تكتب بخطٍّ رديءٍ: (لا يمكنني الكتابة).
وقتها، ما الذي كان سيفيدها به أيُّ نَحوٍ وصَرفٍ
و هي على ذلك الحال؟

أمسكتُ ذراعهُ، ضغطتُ عليها بشدّةٍ،
و هذا أمرٌ لا تقومُ به عادةً في الشرق الأوسط،
و قلت له: (سأُحسّنُ من عربيّتي)،
و شعُرتُ بالأسى على صرامة قلبه.
لاحقاً، في شارعٍ يمتدُّ بنعومةٍ، صُحتُ لأوقفَ سيّارة أُجرةٍ: (وَجَع!)
فتوقّفَت في كُلّ اللغات،
و أشرَعَت أبوابها.

أرضٌ مُقدّسة

فوقَ مضجعٍ يلبسُ من القُطن أنسجةً ثخينة غُزِلَت في البيت/
تطفو «سِتّي» التي لا عُمرَ لها؛
تَغرِزُ إبَرَاً في ملاءاتٍ لتحيك على مقاسنا
ما يقينا الحُمّى.
و أَسمَينا ما تُحاولُ قَوله «شعوذة»؛ فلحروفها مخارجٌ معطوبةٌ
ترفعها عاليًا ثم تُلقيها..
هكذا تبدو أسماءُ الرّحمة والرّجاء
مثل بَتَلاتٍ عَطِشَت من الشّمس على لسانها،
لسان الجدّات المُغتاظ دومًا.
لطالما مطّت الكلمة الواحدة حتى تصير كلمتين.
هكذا يكونُ من المُحتمل أنها قد قالت أيّ شيء؛
فول، أو شلالات، أو حتى صلاة مرفوعة.

و بعدَ أن قالت للطبيب: (أُغرُب لبيتك)
فَركَـت أقدامـي ووَضَعَت في كفّـي، ضاغطةً، ميدالية كُرة سـلّة ضاعت من أحدٍ ما،
و قالت: (أنظري كيف يتقرّب هذا الرّجُل الى الله).

هـي التـي لا يُمكنهـا مُغـادرة القرية في وقـتٍ تحملُ فيه شـجرة ليمونها الثّمَر،
أو أثناء ما كانت تحلُمَ بالثّمَر.

على أرض الكُهّان هذه والبطاركة والمؤذّنين،
ترسمُ المرأة التي لا تجيدُ القراءةَ
خطوطاً بين آلامنا والأرض.
تُمسّدُ جلودنا فتجعلها نَضِرَةً، وأقدامَنا أيضًا،
تلك التي ترحّلَت بالفعل بعيداً عن عالمها
حاملةً في باطن أحذيتها النعامة المطمئنة
نقرَ المسافات.

الكلماتُ عندما نحتاجها

سَبَقَ هذه اللحظة الصباحية المُبكّرة
شَذَىً
أينعهُ المطر،
صوَّرَ بالكامل ما ستصيرُ إليه هذه اللحظة.

يُلقي الديك الذي لم نره قط
تحيّته كل يوم،
فيضعُنا على الأرضِ الظّلامُ الذي حَمَلَنَا في جيبه الواسع
طوال الليل.

و الآن نسير،
موقظين الغُرَف
و مُشعلين الأضواء.
في الأنفاس رسائلٌ بلا كلمات،
لكنها تحتملها كلها؛
لم تُجمع بعدُ
و لم تُرسَل.

يَلوحُ الصُّبحُ صديقاً
أقربَ من أقربِ صديق.

ولا زال بإمكاننا
الحديث.

كيف يُبقي الفلسطينيون على الدفء؟

إنتَخِبْ كلمةً ثُمّ قُلها مرارًا وتكرارًا
حتى تنقدح في فمك شُعلة؛
نَجمُ (الضّفيرة)، المقاومُ الأخير،
نَجمُ (الفَرد)، المُنعزلُ وحده؛
تلك نجومٌ سمّاها أُناسٌ مثلنا (عَرَبْ).
تصطفقُ كُلّ ليلة في الدّرب الطويلة بين العوالم،
تومئُ وترمشُ، وليست الأشياء في أعينها الصفراء خاطئةً أو مُصيبة.
نجمُ (الديرة)، أيُّها المنزلُ الصغير، أُفضُضْ جُدرانك،
خُذنا إليك.

جَفّت بئري، فصمتَت كرومُ جَدّي عن الغناء.
أُقلّبُ الفحم، وأطفالي يبكون. كيف سأخبرهم بأنهم ينتمون للنجوم؟
إنهم يبنون قِلاعاً من حصىً أبيضٍ قائلين: هذه لنا!.
كيف سأُعلّمهم حُبّ الإزارِ والحجابِ والعباءة؟
كيف سيعرفون أنّ خلف النجوم رجُلاً عاشَ في التاريخ القديم

يؤجّجُ عليها اللهب؟
إنّه يُحرّكُ رياح أنفاسنا المُظلمة
و يقولُ أنّ السّتار يرتفع حتى يرانا نبرُقُ
منتشرين كالجمر على الهضاب الرّحيمة.

حسناً، لقد اختلقتُ ما قُلتُه للتو،
لستُ واثقةً من أمر الإزار.
إلّا أنني أعرفُ أننا بحاجةٍ إلى البقاء دافئين هنا
على الأرض.
و عندما يُمسي شالُكِ رقيقًا كالذي أرتديه،
فلن يُمكنكِ فعل شيءٍ
سِوى رواية القصص.

عُقدة اللسان

أخبرَتني إحداهن للتوّ
بأنّ خلايا التذوُّق في ألسنتنا
تَذوي
كُلّما تقدّمنا في العُمر.
تموتُ جماعاتٍ جماعات، أو واحدةً واحدة.
للطفل إذاً مجرّاتٌ بأكملها في فمه.
سنكون محظوظين لو أمكننا الإبقاء على قِطَعٍ منها.
ألهذا يبكي الطفل إذا ذاق طعماً سيّئاً؟
أسيرُ طوال النهار، أفتحُ فمي وأغلقة؛
صارَ طعمُ التورتيلا أعمَق،
و صار مَذَاقُ التوت مكنوزاً في قَبوٍ مُربّعٍ صغير
و يذهبُ بيَ الدّرْبَ كُلّه عائداً إلى شجرته،
إلى ما تبقّى لي من هذه الجِنان بين أسناني.

العَيشُ مع الأخطاء

ستتقدّمنا بِمِشيَةٍ عسكريّةٍ
نحوَ غُرَفِنا.
لا تلبس أيّةَ جَزمَةٍ
و تقطُرُ ثيابها.
قَرّب لها الكُرسيَ كي تجلس
سيطبَعُ قماشه مِن بَلَلِها لأيّام.
و علينا الحديثَ حول كل شيءٍ في حضورها،
عَدَى ما جرى
لها.

ما يُفتَرَضُ وقوعُهُ

جعلنا ننظُرُ إليكَ كيفَ تتنفّسُ
أثناء طفولتك..
أمواجٌ من الهواء ترسو وتملؤ صدرك.
اختبأنا أحيانًا خلف جدارك المدهون
برسوماتِ الأطفال،
أو تحت حاجيّاتك الهزّازة الناعمة.
لطالما أحببتُ حملكَ في جسمي نفسه
بينه و بين العالم.

و الآن ها أنتَ، تبري أقلام الرصاص
و تدخُلُ غابة المطّارات وصناديق الغداء،
و طاولات الدّرس الصغيرة.
و أُناسٌ لم أرهم من قبل
ينادونك باسمك، فتلوّحُ لهم.

ها هنا فَقْدٌ أُحِسُّهُ، وانكماشٌ،
كأنّ حقل أزهارك ينمو ويتّسع.
الآن أفهمُ التاريخ.
الآنَ فهمتُ عَينا أُمّي العتيقة.

أكتاف

رجُلٌ يعبُرُ الشّارع تحت المطر،
يخطو بخفّةٍ وحذر، ناظراً مرّتين إلى يمينه وشماله،
لأن ابنتَهُ
تنامُ على كتفه.

ليس لأيّ عربةٍ أن تلطَخه،
ليس لها حتى السّير قريبًا من ظلّه.
يحملُ هذا الرجل أكثر البضائع هشاشةً
دون أيّة علامة عليه؛
لم يُطبع على سترته (قابلٌ للكسر) أو (احملهُ بعناية).

تمتلئ أذنه بالأنفاس.
إنه يسمعُ همهمة حُلمٍ تراهُ الطفلةُ في أعماق أعماقها.

لن يكون بمقدورنا الحياة في هذا العالم
إذا لم نكن ننوي أن نُعاملَ بعضنا البعض
بمثل ما يقومُ به هذا الرّجُل الذي يعبُر الشّارع،
و إلّا، سيُمسي الشّارعُ هائل الاتساع
و لن يتوقف المطرُعن الهطول.

قفاز أصفر

(1986)

شوارع

يَغيبُ رجُلٌ عن العالم،
فالشّوارعُ التي عاشَ فيها
تقصُرُ بعضَ الشّيء.

نافذةٌ أخرى تُظلمُ في هذه المدينة،
و سيصيرُ التّينُ على أغصانه
طَريّاً للطيور.

لو توقّفنا بهدوءٍ لمساءاتٍ كافية
لبزغَت لنا رِفْقَةٌ كاملة
تقفُ إلى جانبنا الآن بصمت.
في الأعالي طيورٌ تصدحُ مُطالبةً بأشجارها،
و السّماءُ التي تحيكُ وتحيكُ وتحيكُ
بلا كللٍ،
تُرخي أطرافها القرمزيّة.
كل شيء في وقته. في مكانه. سيكون لطيفاً
لو فكّرنا في الناس بنفس الطريقة.

بعضهم يفعل. إنهم ينامون بالكامل، وينهضون منتعشين.

و آخـرون يحيـون في عالمـين؛ الـذي ضـاع والذي قبضـت عليه الذاكرة.

ينامون مرّتين؛ مرّةً لمن رحل، ومرة لهم. يحلمون بثخانةٍ، يحلمون بشكلٍ مُضاعَفٍ،

يستيقظون من حُلمٍ في آخر، ويسيرون الشوارع القصيرة

مُنادينَ أسماءً

تُجيبهم.

جدوى الخيال

ادّعى طفلٌ أنّه رآكِ على درّاجةٍ الأسبوع الماضي.
تجوبين حارته. صاحَ: في شارع «سايبرس» الشّرقي!.
صاحَ كأنّ وجودكِ هناك، ورؤيته لكِ، إجابةٌ لدُعاء.
أن تكوني حيّةً، واقفةً في الخارج، في إحدى مساءات فبراير الرّقيقة:
– كانت درّاجة زرقاء، وجديلتك طائرة في الهواء. قُلتُ لكِ: مرحبًا،
و ضحكتِ لي.. هل تذكرين؟.

كِدتِ أن تُخبريه بأنّ مقعد درّاجتكِ قد غطّاهُ الغُبار،
و الدواليبُ فارغة من الهواء منذ أشهر.
بيد أن وجهه، الوردة المشعّة، يقول بأنّك صديقته،
و أنه قد أخبر أمه عن اسمك.
تشبه حكايته هذه رُخامَةً صافيةً وجدها،
و سيحفظها في دُرج جواربه لوقت طويل.
لذلك، من يستطيع الآن في عالمٍ من المجازات، أن يُنكِرَ
وجود شارعٍ يُدعى «سايبرسٍ» الشّرقي، راميًا الغيومَ في تلك السماء الأدبيّة؟
«بلى يا صاحبي»، وكفُّكِ على كتفه: «مَن رأيتَها كانت أنا».

تعريف البياض

لا يعرف أحدٌ، عِبرَ الهاتف، ماهو البياض.
لكن زوجي يعرف. إنه يلتقط الصور دوماً، ولديه دفاترٌ كاملة
يُعَـرّفُ فيها ما هو الأبيض وما هو الأسـود، وما هي المسـاحات
الرماديّة بينهما.

الهاتفُ أعمى.
-أبيضٌ بياضَ الكريمة؟ أوف-وايت؟
يُجيبُ: أُريدُ أبيضاً، بياضاً أبيضاً، لا يميلُ إلى أي شيء آخر
عَدَا نفسه.

أَخَذَ الأمرُ الآن يتعقّدُ أكثر،
يظهرُ أنّ كُلّ بياضٍ أراه، يميلُ إلى لونٍ آخر.
المنزل أبيض، لكنه يتقشّر،
و البشر لا ينتمون إلى أيٍّ من هذه الألوان.

جُمَلٌ بيضاء
تُشكّلُ نفسها في السماء وتنحَلّ.

مَن يتحدّث هناك؟ أيّةُ أنفاسٍ
تكتُبُ على عجلٍ نفسها هكذا،
بياضٌ في بياضٍ، دون أن تُسمَع؟
هل الرّيحُ اسمٌ، إذًا– أَم فِعلُ؟

أُمُّ العَدَم

يا أختي، ليس للنجوم أطفال،
إنها تنقُرُ الظُّلمة كُلّ ليلةٍ فوق قاطرتك،
عاكسةً على معدنها ضوءها
ليعود لها من جديد.
لكنها بعيدةٌ جداً.
الحصى الذي يرسم طريقك
نحو قطيع الماعز
لا تعرف نفسها إلا كونها صامتة، مستوية السطح، ورماديّة
تحت الشمس؛
ما يبدأ في نفسه، وينتهي فيها،
دون استمرارٍ بأيّ شكلٍ من الأشكال.

أنتِ التي تقفين عند أسوار رياض الأطفال،
ترقُبينَ الاندفاع والانزلاق الأبدي،
التي تجيبين أسئلة الأمهات «أيهم طفلك؟» بهمهمةٍ مُعلّبة،
و التفاتةٍ بعيدة.
اسمعي؛ ستنمو، لأيّ غيابٍ تحملينه بجانب قلبك، أسنانٌ

تقضم أطرافه.
سمعتُ امرأةً تقول إنها لا تملك موهبة، وأخرى لا تملك وقتاً،
و أخريات كثيرات لا يتمتعن بأيّ جمال. لسنواتٍ طويلةٍ سمعتهن،
و تنكمش أجسادهن أثناء ذلك.
ما يَغرَقُ إلى قاع البركة، يطفو خارجاً بألوانٍ جديدةٍ،
أو لا يخرج أبداً.

غَرِقنا؛
و كان هناك البنفسجي،
التحامٌ شهوانيٌ بين الأزرق والبنفسجي،
صمتٌ جديدٌ يجيء للحياة في بيوت أجسادنا.
هؤلاء الذين رَغِبوا، ولم يتحقق لهم شيءٌ أبداً،
الذين وُلدوا بلا أيدي،
الذين كان عندهم ما أرادوه مرّةً وأضاعوه؛
الأُمُّ التركيّةً، مثلاً، بعد الزلزال- أمام خمسة أطفالٍ لها تنامُ جُثثهم بصمتٍ قبالتها،
و امرأةٌ في بيروت، تحملُ ماءً نحو غرفتها المُفَجَّرة..
الآباء في مكاتبهم، بصورٍ مؤطّرةٍ لأطفالهم على طاولاتهم،
عارفين كل الكلمات الثقيلة الصعبة.

و كُنا نلمسُ حينها الأشجار بطُرُقٍ مُختلفة،
و نُنَشّفُ الصُّحونَ بطرقٍ مختلفة،
لأن الانتظار يُبَلّدُ الأحاسيس.
و عندما لا نعود ننتظر شيئاً، يستيقظ شيءٌ ما.
يقولُ ابنُ عمي أن الأمر لا يتعلق بالأطفال،
بِقَدْر ما يتعلّق بخلق الحياة. وقد رأيتُ الشوارع
تنفتحُ في المستقبل- تعبُرُ سيّاراتٌ تقودها نساءٌ
يضعنَ داخلها مقاعِدَ صغيرة
عليها أطفالٌ يُلوّحون من النوافذ الخلفية،
و يتابعون تعداد مَن لوّحَ لهم بالمقابل؛
هل نحملُ قلوبنا لنجيبهم بها؟
وماذا سنقول لو فعلنا؟
و أخيراً، تتساوى الحكايات القديمة عن كل شيء
و عن اللاشيء.. تعودُ في جُنح الليل كالأقارب؛
يعرفون أين دُسّت المفاتيح السريّة خارج البيت،
فيأخذونها
و يدخلون.

البَصَلة المُترحّلة

(يُعتقـدُ أن البصل جاءَ بـدءاً من الهند. وقد كانت في مصر غَرَضاً للعبادة. ومن مصر انتقل البصلُ إلى اليونان ثُمّ إيطاليا، ومنها إلى القارة الأوروبية برُمّتها).

– كتاب «أطباقٌ لحياةٍ أفضل».

عندما أُفكّرُ بالمسافة التي قطعها البصلُ مُترحّلاً
فقط ليدخُل في حسائي اليوم، أَوَدُّ لو أجثو
و أُمجّد كُلّ المُعجزات الصغيرة المنسيّة؛
الورقُ الذي يتقشّرُ عن طاولة غسيل الأواني،
الطبقة المتلألئة على صفحة عَقد،
الطريقة التي تندَسُّ بها سكينٌ في بَصَلة، وتتهاوى
قشرة البصلة على خشبة التقطيع..
إنّه تاريخٌ كاملٌ يأخذ بالانكشاف.

و لن أوبّخ البصلة لتسبّبها بالدّمع.
إذ يبدو عَدْلًا أن ينهمر الدمعُ لشيءٍ صغيرٍ مَنسي.
كيف نجلسُ إلى المأدبة لنأكُل

مشيرين ومادحين قوامَ اللحم ونكهة الأعشاب
دون أن نتوجّه بذلك أبداً للبصل الشفاف الذي
يبدو حينها واهناً، مُقطّعاً.
ولا نتوجه بذلك حتى لدوره التقليدي المُشَرِّف:
الاختفاءُ من أجل الآخرين.

بجانب الأُم تيريزا

هناك ما يكفي، أخيراً، من الناس لاحتضانهم!
غُرفةٌ لمن أعمارهم عامان بأيادٍ مرفوعة،
نحملهم ونؤرجحهم عالياً في الهواء؛
تكشيرهم المضحك نوافذٌ في مدينة الحيطان المنهارة.
طفلةٌ تتقرفصُ وحدها في الزّاوية،
تجثم على حذائها، إذ يصعب الحفاظ على الأحذية في هذا العالم،
يسرقها الناس ويبتعدون.
شعرها المتأجّجُ منزلٌ
تحيى فيه وحيدة.
عندما لمسته، نظرَت للأعلى، مُرتابةً،
ثُمّ رفعَت عَقِبَ طبشورٍ من حذائها؛
رسمَت ثلاث خطوطٍ حادّةٍ على أرض الغرفة.
هززتُ رأسي مُكرّرةً: «هَلْ لي أن أقرأ؟»، متخيّلةً:
«أحبّيني، أحبّيني، بلى..»،
لكنها أكثر وحدةً من أن تصدّق ذلك.
انطفأَ وجهها. لن أستطيع أن أُخَمّن أبدًا
ما حدث.

مطر

سألَت إحدى المُدرّسات التلميذَ «بول»
ما الذي سيتذكره من أحداث الصفّ الثالث بعد تخرجه الوشيك؟
فصَفَنَ لوقتٍ طويلٍ
قبل أن يكتب مُجيباً: هذه السنة، وضعَ أحدٌ كفّهُ على كتفي.
و سلّم ورقته.
لاحقاً، أتتني تلك المُدرّسة لتُريني ورقةَ «بول»
كدليلٍ على أنها تُهدرُ حياتها في التدريس.
الكلماتُ التي كتبها كانت كبيرة، كبيوتٍ في مشهدٍ واسع.
أرادَ أن يدخُلها، أن يعيش فيها؛
يستطيع أن يملأ الفراغات التي في الحروف (O) و (D)،
و أن يُمسي في مأمنٍ، في حين أن الطيور في الخارج
تبني أعشاشها على أنابيب التصريف،
ولا تعرف شيئاً
عن الأمطار القادمة.

ما أجابَ به أعداءه

يستطيعُ سماعهم من أعماق الغابة،
تكسيرٌ هائلٌ للأغصان، وصياح:
لستَ جيّداً على أيّة حال، ولن تكون جيّداً أبداً.

يتبعونه من حينٍ إلى آخر،
يمحون من ورائه آثاره..
أرادوه أن يتوه في عالم الأشجار،
أن يقفَ بصمتٍ رافعًا يديه إلى الأبد.

يراقب في الليل أنوار الشارع،
تتشرّبه الأعشاب.
يستطيع أن يستحمّ بصوتها الرائع،
أن يتدحرج نحو مشهدٍ مختلفٍ تماماً.
ما الذي أوعزَ لهم التفكيرَ
بأن العالم غُرفةٌ صغيرةٌ إلى هذا الحد؟

فَرَدَ لهم ثيابه على الطاولة،

و صَفّ الأصفاد.
ما أجابَ به أعداءه
كان مثل نافذةٍ تنفتحُ عالياً بقدر ما تدفعها:
أُدخلوا، ابحثوا عني حيث تظنونني، وعندها،
عندما تجدون أنه لا أحد هناك،
نستطيع الحديث.

احتضانُ دولاب الموسيقى
(1982)

إلى أخواتٍ فُقِدنَ ثُمّ عُثِرَ عليهن

أين كُنتِ في شتاءات الثلج،
أيّ سقفٍ حدّقتِ به
قبل أن يعود الظلام للبيت
يحمل بين يديه كفّكِ؟
ما الذي أخبرَتكِ به أمك عن العالم؟

لا تهمني الحقائق، بقدر الدخان المتصاعد
من الحكايات،
أين كُنتِ عندما لم يكن من أحدٍ هناك؟

عشتِ في فرنسا عند أقدام الجبال
مع الورق وأيامٍ بيضاء كالقشطة.
تتبّعتِ ماشيةً خطوط السكك الحديدية
حالمةً بالمرايا..
كيف أمكَنَ لحياةٍ أن تعكس أخرى،
أن تنعادَ وتنعادَ وتنعاد...
وقفتِ في غُرَفٍ كثيرةٍ

و بالكاد حطّت طيور عينيكِ السّوداوتين،
و تعرّفتِ النهر الطويل الذي كان صوتك..
– «شكرًا لكِ».. كأنَ حصاةً قد أُلقيَت، تغرقُ الآن ببطء..
– «شكرًا لكِ».. مَوجَةٌ تعود..
و الآن، و أنتِ مُنحنيةً لتوقيع أوّل صفحةٍ من كتابكِ،
هناك أمورٌ أخرى تتوجّبُ الشكر أيضاً؛
الأيّام المطوية خلفكِ، في يقظتكِ،
هذا اليومُ مُتّصلٌ بها؛ مرايا أكثر.. وطيورٌ أكثر..

إليكم أخواتي،
إلى أنهار الدم التي نؤويها في الخفاء،
إلى الجدّات اللوات غمغمنَ نفس الأغاني،
و إلى الدروب التي عرفنا بها بعضنا لسنواتٍ قبل أن نلتقي.
كيف على الشرفات الوحيدة في فم الليل اليقظ
يهوي الحُزنُ بعيدًا، بغتةً وبشكلٍ مستغربٍ، ونمضي قُدُمًا
واثقات بأننا وُلدنا ضمنَ عائلةٍ كبيرةٍ،
أنّ أخواتنا يُغطّون الأرض.

أضواء النوافذ الأخرى

نقودُ الليلةَ غرباً، وتضمحلُّ المدينة خلفنا.
يسكنني شعورٌ بأننا ذاهبون إلى أبعد مما قَصَدنا،
رحلةٌ ابتدأت في المحبرة العميقة التي
كُتبت منها أيّامنا.
لم يُذكَر شيءٌ عن أمر الحدود،
بيد أنني جثمتُ على حافة ضوءٍ جديد.
يُمكن للهضاب هنا أن تنفلق عن حزمة ضوء،
تشبه تلك المنبثقة من قبعات عُمّال المناجم،
تُقِلُّنا عن هذا الطريق..
إيماءاتٌ تومِضُ، وها نحن دلفنا غُرفةً وضّاءةً
من التحايا والكفوف. ولكن عندما تنسكبُ القصص،
أجدُ نفسي طافيةً وحدي نحو الليل الذي تركناه للتو..
تلك الحقيبة الرّائعة من الظلمة.. حيثُ الأيلُ الأسودُ
يلتقطُ عُشباً خفيّاً، وأسوارٌ مُعتمةٌ تفصلُ الشيء عمّا بعده،
و يجيءُ صوتٌ من أُذْنيَ الأولى: «ليسَ هذا»، «ليسَ هذا..»
و ترتفعُ نوافذُ طفولتي المضاءة؛
من نوافذ المنازل التي عاش فيها الغرباء

يجيءُ ضوءٌ
ينحرف قاطعاً الشوارع السوداء،
يقول لي كم هي محدودةٌ تلك الصور المتاحة لي عِبره.
حلُمتُ لثوانٍ بغُرف الغرباء وطاولاتهم،
و كانوا مُرتاحين لثقتهم بوجود بلايين الحيوات من حولهم،
كالنجوم، كمعرفة أن درب التبانة مكوّنٌ من نجومٍ
أكثر مما تكشفه العينُ المُجرّدة.
كأن يكـون عندك مـكانٌ تذهب إليه عندما يحملك تعبك المُشـع خارج الغرف،
يصيرُ جناحاً، يأخذك إلى أبعد مما قد تقطعه
عندما تصل حياتك
إلى نهايتها.

حيثُ يعيشُ الأطفال

المنازلُ التي يعيشُ فيها الأطفال
تتلبَّدُ بإثارةٍ مَليحَةٍ،
مثل فِراشٍ رتَّبَ طفلٌ وسائده ولحافه،
أو بهوٍ تناثَرَت فيه بالونات.

على المرء، ليعود طفلاً من جديد، أن يذرف التفاصيل
حتى يجد القلب نفسه مُرتدياً معطفاً وقلنسوة.
أمّا الآن، فقد ارتدى القلبُ قفّازاتٍ ونقاب،
و لم يعُد يخرُج أبداً للبحث عن شيء ليفعله،
و أخذ البيتُ وجهاً جديداً، وَقُوراً.
لا أحذيةً ضائعة تبرُقُ تحت الشجيرات..
ولا سيّارات رائعة في الموقف.
ناضجون كالأراجيح، كالنباتات المورقة،
حركةٌ بطيئةٌ للأمام وللخلف.
لكن أفنية الأطفال مبذورةً
بجُثث عُلَبٍ على شكل صواريخ فضائيّة، وصافرات..
بكُلّ ما يَئزُّ، بكُلّ ما هو باهرٌ وقصير الحياة بشكلٍ مُذهل.

تتحدّثُ الأشجارُ في أفنية الأطفال بألسنةٍ أفصَح.
للنمل أملٌ أكبر. ترقص السناجب فيما تختبئ.
للسور سببٌ للوقوف هناك، كي يستطيع الأطفال الدخول والخروج.
و حتى عندما يكون الأطفال في المدرسة، تبرُقُ الأفنيةُ ببقايا شغفهم،
جذورُ أصغر الأعشاب هُناك، تلتوي نحو بعضها البعض
مثل ابتساماتٍ
سريّة.

الأُغنية

تجيءُ من مكانٍ ما
نغمَةُ موسيقى هادئة.
تَزِنُها بلسانكَ
حبّة عنبٍ ناضجة
حتى يتلألأ جسدك.
في الفاصل بين نَفَسَين
تقرأ النغمة على أيّ جُرح،
فيبرأُ ذاك الجُرح.

عن قُربٍ، ستزدادُ الليالي طولاً،
ستحنو على أعوامك،
مُهمهماً كالمنشار..
ستملأ المصابيح بالكيروسين
عارفاً أنّ هناك في مكانٍ ما
تنقطعُ الكهرباء،
مدينةٌ تدخُلُ في السّواد،
و أُناسٌ يجوسون قيعان الأدراج بحثاً عن شموع.

أمّا أنت، فستكون مُستعداً، سترفعُ الأغنية كعود ثقاب،
ستملأ غُرَفَكَ،
وتفتحُ غُرفاً أخرى من عندها،
هكذا وأنت تغني، ستعرف بأنّ منزلك
لم يكن بهذا الاتساع
من قبل.

إعدادُ طبق

لأوّل مرّةٍ، في الطريق شمالَ «تامبيكو»،
شعرتُ أنّ الحياة تنزلقُ مني،
طبلاً في الصحراء يصعُبُ سماعه.
كنت في السابعة من عمري أستلقي في السيّارة،
أُشاهدُ النخيل خلفَ الزجاج ونحن نجتازها
تتكرّرُ بنمطٍ رتيب،
كانت شهوتي للطعام مثل بطيخةٍ تنفتحُ واسعةً تحت جلدي.

رجوتُ أُمي أن تجيبني:
كيف يعرفُ المرءُ أنّهُ سيموت؟
كُنّا في طريق السفر لأيّام.
و بثقةٍ غريبةٍ أجابَت:
عندما لا يعودُ بمقدورك إعدادُ طبق.

و أبتسمُ بعد سنوات، عندما أُفكّرُ بتلك الرّحلة؛
الحدود التي كان علينا قطعها متفرّقين،
مدغومين بِمِحَنِنا التي لا جوابَ لها.

و أنا التي لم أَمُت، التي لا أزالُ حيّةً،
لا أزالُ مستلقيةً في المقعد الخلفي لأسئلتي كُلها،
أضُمُّ كفّي الصغيرة،
و أفردها..

تزجيةُ اليوم

يقودُ الرّجالُ درّاجاتهم
من منعطفات المدينة باتجاهنا،
و يُصفّرون ببهجةٍ.
إنه المساء،
و الشوارعُ مَوزُنا النّاضج.

كانت لأيادينا مِهَنٌ
قبلَ الدّعك والتقشير،
لم يكُن من واجِبِ أحدٍ أن يُعلّمها الحُب،
أو كيف تتلمّسُ وتُحِس.

هذه الهسهسة التي تُصوّرها آلةُ كَيّ الملابس
مُبخّرةً ياقات الأقمصة.
يجيءُ الرّجالُ بالقُبُلات
و بوريقاتٍ مطويّةٍ تصفُ عينيكِ.

إنها الرّسالةُ التي تنقُرُها الطيور

على الأشجار،
هناك شخصٌ قادمٌ،
هناك أناسٌ لمقابلتهم،
لم تنكتب أسماؤهم بعدُ
في عالم الموتى.

الكاميرا المسروقة

مُنذُ أن سُرِقَت الكاميرا،
صار كل مشهدٍ فوتوغرافاً–
زهرٌ ورديٌّ على جصٍّ أبيض،
الوجه الجاد لرجُل رُقاقات البطاطس
مُحدودبٌ على عَرَبَة.

في السّاحة غَجَرٌ يلبسون تنانيرَ برّاقة، يبرمون فيما بين أشجار النخيل،
أمُدُّ يدي لألتقط الكاميرا وأمدها لك،
لكنها رحلت،
سرقها لصٌّ لا يفقه في العدسات أمراً.

هل تُفكّرُ بالكاميرا؟
سألتك مرّةً، فأومأتَ مُجيباً؛

لن تذكرها في أحاديثك أبدًا.

التقطتَ قبل يومين ذاك الوليّ الصالح
الذي قَبَّلَ بوَهْنٍ كفّيك.
التقطتَ أيضًا توأم النباتات الجهنميّة ضاحكاتٍ
على نافذتهن.
لكاميرتكَ عينان حريصتان.
الصور التي بداخلها، سُرقت أيضًا معها،
إنها أطفالٌ لن تُكتَب لهم الولادة.

ما الذي سأشعُرُ به لو سُرِقَت أقلامي؟
ستذهب شفتَيّ في خلق كلماتٍ
حين أعبُرُ الشّارع المرقّط؛
كلماتٌ في كُلّ مكانٍ، خطواتٌ وأوراقٌ صفراء.

جُزنا اليوم أمام الدَّيرِ بصمت.
ربما كُنّا نتشرّبُ الضوء،
ملائكةً مُختصرين من الشّمس على الحجارة.
رُبما الليلة، عندما ننام، ستقومُ الأمورُ التي رأيناها كلها

بترتيب نفسها داخلنا؛
مُذنّباتٍ تعبُرُ سَريعاً،
فنستيقظُ مُشعّين
و في أعيُننا العالم.

شُهرة

النهرُ مشهورٌ عند السّمَك.

الصوتُ العالي ذا شُهرَةٍ عند الصّمت الذي
يعرفُ أنّهُ سيرثُ الأرضَ
قبل أن يُخبرهُ أحدٌ بذلك.

القطّةُ النائمة تحت السّور مشهورةٌ جداً
عند الطيور.. يرقبونها من بيوتها.

الدّمعةُ مشهورةٌ، لوقتٍ قصيرٍ، عندَ الخد.

الفكرةُ التي تحملها في حُضنك
مشهورةٌ لحُضنك.

الجزمةُ مشهورةٌ عند الأرض؛
أكثرُ شُهرةً عندها من كَعب الفستان
المشهور بدوره عند الطوابق الرُّخاميّة وحسب.

الفوتوغراف المطوي مشهورٌ جداً عند حامله،
و قد لا يعرفهُ أبداً من التقطه.

أُريدُ أن أصير مشهورةً عندَ رجالٍ جوّابين،
يعبرون الشوارع ضاحكين..
عند الأطفال البغيضين في طوابير متاجر الأغذية.
مشهورةٌ كالذي يرُدُّ الابتسامةَ بابتسامةٍ دَوماً.

أريد أن أصير مشهورةً
كما حبل غسيلٍ
أو ثقب زر؛
ليس لأنهما قاما بأيّ أمرٍ عظيمٍ،
بل لأنهما لم ينسيا أبداً
ما بمقدورهما فعله.

طُرُقٌ شتّى للصلاة

(1980)

حاضرٌ في الذاكرة

أرادَ أن يذكُرَهُ الناس،
فوهبهم أشياءَ يستعيدون ذكراهُ بها؛
جِذعٌ ضخمٌ مبنيٌّ باليَد
من الرّماد وأخشاب الأرز.
صندوق أدواتٍ يحملُ قُصاصاتٍ على شكل أَحرُف اسمه الأولى،
غلّايةُ شايٍ تُصَفّرُ كُلّ صباح،
و جِرارٌ زُجاجيةٌ عتيقةٌ لتملأها
بحبوب الجوز والفاصولياء و المعكرونة،
و عائلةٌ كاملةٌ من المُربّى، أَعَدّها من تين أرضه وتوتها القرمزي.

بلا تخطيطٍ وَهَبَ تلك الأشياء. هكذا تذهبُ لتراه،
فتعودُ لمنزلك مُحمّلاً.. تُجيبُهُ بـ«شُكرًا» حتى يُثقِلَ شفاهك العرفانُ
حتى تتورّم، فتسكُت.

تُرافقه متجوّلاً
في فدادين غابة الصنوبر،
و تلحظُ أنّه يتحدّث إلى كُلّ شيء،

الطين والبقايا، كما يتحدث معك تماماً.
«أعـرفُ أنّك تبدو رائعاً، جالسـاً في ذاك الحقل وعاكسـاً الضوء كمرآة، هل تعرف ذلك؟».
و كأنّ الأشياء تسمع، وكأنّ للأرض ذاكرة.

أسندنا في الليل أقدامنا إلى بعضها
عند موقد الحطب،
و ضَحِكنا، واستعرضنا ألبومات صورنا،
و تذكَّرَت النّارُ كُلّ ما عَرَفَته
من موسيقى الاشتعال والطقطقة.
تذكَّرَ الليلُ ظلامَهُ، وتذكّرَت الغابَةُ رِيبَتَها،
و على الفراش تذكّرَت الأغطيةُ كيف تندَسُّ تحت ذقوننا.
لا يشبه النومُ في ذاك المنزل سوى سقوطٍ لا نهاية له
في بئرٍ عميقة.. تتأرجَحُ في دَلْوِها طوال الليل.

و سنبتعدُ بارتباكٍ في الصباحات
عن فطورٍ لا يُنسى من رقاقات البسكويت-
سيأخذنا إلى غرفةٍ مجاورةٍ،
مُستعدّاً لاستعراض شيءٍ جديدٍ أو لِدَسّ قصّةٍ أخرى داخل آذاننا،
و قد دوّنَ فصولها بخطٍّ مُرتّبٍ ونظيف
و سلّمها لزوجة أحد فلّاحي الأرض كي تطبعها له.

كانت قصصاً عن صبيٍّ صغيرٍ وجَدّه،
عن الدجاج وخِيَم الصلاة، والفول واشعال الحطب.
و يُمسي الترحُّل في الماضي، في بعض الأيام، أسـهل من الجلوس على كُرسي،
هُناك تماماً.

حين هممنا بالمغاردة، صاحَ بنا: «لا تنسوني، لن تنسوني بعد الآن، هلّا فعلتم؟»،
و كأنّ تَذّكُرنا له قد يُطيلُ عُمره.
أردتُ طمأنته وحسب بأن هناك دوماً، في دمائنا، مقصورةٌ يحيى وحده فيها.
بيد أن الحاجة للتذكُّر قد أخرستني؛
رنينٌ يتصاعدُ من كل القرون التي مرّت على هذا التراب،
من كُلّ مَن حَرَثوا هذه الأرض،
أولئك الذين لم نعرف لهم أبداً
أيّة أسماء.

سمك البلم

حدّقتُ الليل كُلّه في المرآة،
أتفرّسُ تجعيداً عميقاً بدء يطفو على جبيني،
فوقَ عيني اليُمنى.

أُحرّكُ عضلات وجهي لأعرفَ
من أين يجيء، غير أنه يأتي من كُلّ مكان،
الألم واللذة و نظرةِ الحَيرة التي ترفعُ جفني الأيمن،
و أيضاً من طريقتي في قول «نعم»؛
و حتى أنني أقول «نعم» وأعني بها «لا»!
و تنمو التجعيدة أكثر.

إنها تحفرُ سطرًا يقطعُ جبيني كُلّه،
مثل صَدعٍ في قاع جدول ماء،
يبدأُ صغيراً، ثُمّ يختلجُ بين حصاتين
و ينتهي شاقّاً القاع نصفين.

أجتازُ الماءَ بصعوبةٍ،

مُتحسّسةً القاعَ بقَدَمي،
حَصَىً أملسًا كالبَشَرة،
وسمكًا ينزلقُ
دونَ تعبٍ يُذكَر.

الحُلم

يهبطُ عليكِ بقوّةٍ أحيانًا
حُلمٌ ثقيلٌ
يُسَوّيكِ بالأرض.
إلّا أنني أحببتُ الأمرَ كما كان في السابق؛
أئنُّ، وحُلمي مثل منديلٍ حريريٍّ،
رهيفاً وصامتاً يلوحُ فوقَ رأسي.
و قد يكون مثل أيّ شيء حقّاً؛
طائرة ورقيّة، أو عصفور، أو حتى منطاد هائل
يَسَعُ ثلاثة رُكّاب.
و بالرغم من ذلك
يهبطُ في حُضنكِ تمامًا،
لقد أرَدْتِهِ هكذا؛
استدرَجْتِهِ سِرًّا لعدّة أشهُرٍ،
و ها هو مثل سمكةٍ عالقة.

كبيرٌ على شبكة الصّيد،
ويُحبّكِ أكثر مما تُحبينه.

يُريدُ أن يبقى هنا للأبد،
مُبتسماً ومُتعانقاً
على صدر أيّامك.

سيرةُ تلميذةٍ أمريكية

لقد عِشتُ في غُرفة الحَجَر،
حيث تحوّلت الأصوات إلى عظامٍ مدفونةٍ تحتنا
قبل وقتٍ طويل.
حيث تستطيع أن تحفُر لقرونٍ كاملةٍ كاشفاً عن نفس الغُبار الفاتن.

تحلُمُ كفّي بكعكٍ هلاليّ الشّكل،
تحلُمُ بأقمارٍ عالقةٍ في أرضٍ ضيّقةٍ ومَعروقة.
قضيتُ يومي أدرُسُ كفّي- وأُعطيها الآن
أشياء جديدةٍ لتُمسكها.

ارتحل. أقولُ لك. ستجدهما قد صارا قواربا.
اذهب. يتلوّى الطيرُ للانعتاق من الذراع.
و فوقَ الأفنية يرتفعُ راديو في الهواء،
و ينفجر.

ما الذي يعنيه تاريخُ أوروبا برُمّته، لو لم نكن نقدرُ
على اختيار أزواجنا بأنفسنا؟

التقى أبي أمس برُجلٍ أرمَلٍ رجُلٍ دونَ شعر.
كيف سأنامُ معه، أنا التي لم أنم في حياتي بعيداً عن أُمّي؟

و مرّةً اشتريتُ رغيفاً من البائع ذو الظهر المحدودب.
حَمَلتُهُ للمنزل وأنا أُغنّي. وظنَنتُ أنّ للأيّام أبواباً ستندفعُ مُشرعةً أمامي.

الآن أنسَخُ الحروفَ الأبجديّة لثلاث لُغات،
مُتخيّلةً الدوائر في حروفي العربية أعيُناً.
ماذا تفعلُ عندما تتعبُ مما تراه؟

ما الذي يحدث للجسد الرمادي عندما يُسجّى على الأرض،
مثل هذه الأمور هي ما تشغلني.
لكنهم يُعلّمونا الجَبر،
و يشُدّون شعورنا للخلف ويُفتّشون أظافرنا.
و الظّهيرةُ
قطعةٌ مُتوقدةٌ من الشّمس على الجُدران..
لودَدْتُ أن أُحلّق عليها بعيداً عن هُنا
أقولُ: أرحَلُ.
سأذهبُ لمسافةٍ قصيّةٍ حتى تصبح حياتي أمراً ضئيلاً خلفي.

إنهم يُدَرّسون الفيزياء والكيمياء. ألقيتُ كُتبي من النافذة ناظرةً للصفحات تتبعثرُ كالأجنحة.

هناك أمرٌ آخر وُلدنا له.
أكادُ أذكُرهُ.
بيد أن شبحًا حولي الآن، وأنا أكتُب، يكتُبُ على نفس السّبورة، و يَخرُجُ بمجموعٍ مُختلف.

فَنُّ الاختفاء

عندما يقولون لك: ألم نلتقي من قبل؟
أجبهم: لا.

عندما يدعونك إلى حفلةٍ،
تذكّر كيف تبدو عليه الحفلات
قبل أن تُجيب.
و إذا أخبرك أحدٌ بصوتٍ عالٍ
أنّه كَتَبَ قصيدةً مرّةً،
فتذكّر كيف تبدو كُرات السّجَق على صَحنٍ ورقيٍّ،
ثُمّ أجب.

إذا قالوا أنّ عليكم أن تلتقو جميعًا،
قُل: لماذا؟.

ذاكَ ليس لأنك لم تعُد تُحبهم بعد الآن،
بل تُحاول أن تتذكّر أمرًا أكثر أهمية من أن يُنسى؛
الأشجار، و أجراس الدّير عند الفجر.

قل لهم بأنك على أُهبة مشروعٍ جديدٍ
لن ينتهي أبداً.

سِر في الجِوارِ كأنّك عُشبَةٌ
تعرفُ أنّها قد تندثرُ في هُنيهةٍ
ثُمّ احسِم ما الذي ستفعله
بوقتك.

صندوق الموسيقى

لا أعرفُ من أعطاني هذه الآلة،
ما الذي حدثَ للصندوق الذي كان يضُمُّ مرّةً
هذا المُحرّكَ العاري الآن..
أُديرُ المقبض
مرّةً بعدَ أُخرى
حتى يلتفّ بإحكام،
ثُمّ أرقُبُ التروسَ المُتلامسة تُديرُ بعضها البعض
ضاربةً رنّاتٍ معدنيّةٍ دقيقة.
إنها أُغنيةٌ أليفةٌ
لكن لم يكُن بإمكاني تسميتُها.
ترنيمةٌ مُنمنمةٌ تتكرّرُ وتتكرّرُ،
مُرعِشَةً كَفّي.
أشعُرُ بأنّ هُناك ما عليّ تذكُّرَهُ،
على الأقل مَن قَدّمَت صندوقَ الموسيقى لي،
لكنها ذكرىً قد هَوَت بعيداً عني،
مثل النغمات الموسيقية هذه وقد اضمحلّت
في يوم الاثنين هذا؛

تلك النغماتُ التي تُعزَفُ معاً،
و تلك النغمة المنفردة العالية،
و أيضاً
وقفاتُ السكون.

إلى محمد في الجبل

1.

عمي محمد، أيها الغامض، يا ذا الوجه الذي بلا وجه..
للتو أبحرتَ فوق المُحيط، وربتّ على كتفي،
و قُلتَ «أرأيتِ؟» وأظن أنني أعرف ما تعنيه.
رغم أننا لم نُحَدّث بعضنا البعض قط، رغم أنك خلال خمسة وعشرين عامًا
لم ترحل إلى أيّ مكانٍ أبداً،
أو على الأقل إلى مكانٍ معروفٍ للناس.
كنتَ المرء الذي شغل بالي منذ طفولتي،
أنت، من بين كل أعمامي، العائلة الأكبر.
لقد أرهقتُ أبي بالأسئلة: (و لكن لماذا صعدَ الجبل؟)، (ما الذي جرى؟)،
و بطريقته الهادئة المعتادة، يهُزُّ كتفيه مُجيباً: (و مَن يدري؟).
كل ما عرفته عنك هو أنك حزمتَ أمتعتك، وصعدتَ الجبل،
و لم تنزل أبدًا.
و كان ذاك بالنسبة لي فاتنًا: كيف تتدبّرُ أمرَ الطعام؟ مع من تتحدث؟

ما الذي تفعله طوال النهار؟.
لأصدقائي في المدرسة الثانوية أعمامٌ يقودون درّاجاتٍ ناريّةٍ،
يَشوون قطع اللحم في الهواء الطلق، أو يذهبون للسينما.
لكنني فضّلتُك أنت، بصمتك هذا كله.
كنتَ في خيالي مثل إلهٍ يحيى بالقُرب من السحاب،
قويّاً ولا تخاف، ودون أحدٍ يُغنّي لك كي تنام.
و أردتُ أن أعرفك، أردتُ لأيادينا أن تتلامس، أن تنظُرَ إليّ وأن أُميّزَ دَمَك،
أنا واحدةٌ من سلالتك، و لم أنظر إليك كما يفعل الآخرون أبدًا كمجنون.

.2

أتساءل ما الذي تعرفه من أخبارنا. أن «نعّومي» التي تسمّيتُ باسمها، أختك
قد ماتت؟
و أنّ أخاً لك أطلق النار على نفسه «بالخطأ؟»،
أنّ إخوتك «عزّة» و «مفلي» حَضِيا باثنين وعشرين طفلاً
يتزاوجون من بعضهم الآن.
أنّ أبي يُحرّرُ إحدى أكبر صُحُف أمريكا، لكنه يُعلّقُ على بابه حروفاً عربيّةً:
أهلاً وسهلاً. بابٌ لن تدخل منه أبداً.
جئنا يا عمي إلى بلدك، عِشنا فيها لسنةٍ كاملةٍ

بين الأغنام والحصى، والجمال والزيوت العطرية،
و لم تنزل لنا كي تُحيينا.
أظن أن ذلك قد آذى والدي، رغم أنه لم يتحدث أبداً عن الأمر.
آلمني أنني أمسحُ بعينيّ الجبالَ باحثةً عن مشهدٍ لوجعك،
و أمتحنُ الأقارب لأعرف ما قد يُخفونَهُ عنّي.
أأنت غاضبٌ علينا؟ هل تظن أنّ أبي قد نسيك عندما
حزمَ أمتعته واعتلى السفينة؟
صدقني يا عمي، إن أبي أقرب إليك من إخوتك الذين
بَقُوا إلى جانبك. عندما يُريدُ الاعتناء بالشّجر،
يسيرُ نحوها بطيئاً ومثقلاً،
تُغنّي خُطاهُ الجبال.
و هل تظن أنه، عندما يضعُ القهوة على النار ويطحن الهيل،
يشعُرُ بأنه أمريكي؟
هل تظن أنه نسي آذان الصلاة؟

آهٍ يا عمي، سامحني، هل طالت لحيتك كثيراً؟

3.

ربما ادّخرت أسباباً أخرى.
ربما لم تصعد الجبل لأنك كنت غاضباً.
هـذا مـا أتعلّمـه الآن، الصوت الذي أسـمعه عندما أسـتيقظ في

الثالثة صباحاً،
يقول: علّمني، كم هو قليلٌ ما أحتاج أن أحياه. ولستُ أعرف،
هل أنا من ينطق ذاك الكلام أم أنت؟ أم جدران الغرفة؟.
كم هو قليلٌ، قليل.. ويُداعبني العالم بسؤاله: كم؟.
مالٌ ومناسباتٌ وطموحات وخطط، آهٍ يا عمي؛ لديّ مكانٌ مميّزٌ
في هذه الدوّامة. أظنه سيُعجبك!.
تعلّمتُ بالأمس كم قشرةً على السكين كشطها من الخشب
كي تتركه منجوراً ومُندلع النعومة.
قرأتُ اليومَ ملائكةَ الضوء من النافذة؛
لمسوا في البدء الأرضَ، ثم الفراش،
حتى سَطَعَ كل شيء وأُشرِعَت الستائر حتى أقصاها.
و بالنسبة للأصدقاء فهم أقل ما لديّ وأعزّ،
و يبدو أن من بقيَ منهم يُحبون صعود الجبال أيضاً، بطُرُقٍ مُختلفة،
رغم أننا نحلم بأن نلتقي هناك في الأعلى.
هل ستكون هناك؟
تُلقي بنظرك حائماً فوق الوديان وأغصان الزيتون،
مُرحباً بنا قائلاً «إجلسوا، إجلسوا..»،
فقد كُنتَ تحتري قدومنا
منذ وقتٍ طويل.

السّير على شارع «بلانكو» في منتصف الليل

هناك طيّةٌ تنعقدُ داخل النّفسِ عندما
تصيرُ الأضواء ضعيفةً في الأُفق
و ليس يُشِعُّ منها شيءٌ على وجهك.

يحدُثُ ذلك في الأماكن الهادئة،
و هي طيّةٌ هادئةٌ أيضاً.
كالذهاب للنوم في بيت العائلة المُريح؛
عندما ينامُ الجميعُ
يطوي المنزلُ عليهم نفسه،
تُطبِقُ النوافذُ أجفانها.
و إذا كُنتَ في الداخل، فستُطوى تلقائياً،
و إذا كُنتَ في الخارج تسيرُ بمُحاذات البيت المطوي
فستشعُرُ بالوحدة حتّى الجنون.

لكنك لن تُصابَ بالجنون،

بل ستبدأ بالانطواء على نفسك بطريقتك الفريدة.
تشعُرُ بحوافّك تزحَفُ نحو المركز،
و قلبك مثل سجّادةٍ مطويّةٍ تفردُ نفسها وتتكشّفُ عن أنها تضُمُّ كُلّ شيءٍ داخلها.
تشعُرُ بأنك لست بحاجةٍ لأن يُحبك أحدٌ بعدها،
لأنك تشعر بكل شيء بالفعل،
تشعر به، تطويه، والآنَ سيستريح لبعض الوقت
بهدوءٍ
و سكينة.

أحمد عبدالسلام العلي

شاعر و مُترجم من السعودية. وُلد في مدينة الظهران عام 1986م. يُحضّر دراساته العُليا في علوم نَشر الكتب و المجلات في مدينة نيويورك، و يعمل في أكبر دار نشر للكتب في العالم Penguin Random House. ترجَمَ إلى العربيّة مقالات من مجلات و صحف عالمية منها (ذه نيويوركر)، و نصوص أدبيّة أهمّها رواية (اختراع العُزلة) للروائي الأمريكي (بول أوستر)، و كتاب المذكّرات (حليب أسود) للروائية التركية (أليف شافاق)، و هو ضمن الفريق المشارك في مشروع (تكوين) لترجمة الكتب العالمية المهتمة بتقنيات الكتابة الأدبية ومهاراتها، و أوّل إصداراته كتاب (لماذا نكتب؟). لهُ عمود أسبوعي في مُلحق صحيفة عكاظ الثقافي.

قامَ بإعداد و تحرير العديد من الكتب الشعرية والثقافية المنشورة، و أهمّها مَجموع الأعمال النقدية للشاعر و المفكر السعودي محمد العلي في خمس كتب. شارَكَ في تحرير قسم الشّعر في مجلة «إلى»، و أسّس و أدارَ مجلة «غصون» الإلكترونية تحت إشراف الأستاذ علي الدميني. كان عضوًا في لجنة فعاليات نادي المنطقة الشرقية الأدبي. نُشرت كتاباته في العديد من الصحف، منها: العرب و الحياة و عكاظ و الشرق و شَمس.

صدرَ له:

- أصواتُ الطبول البعيدة: ترجمة مُختارات من الشعر الصوفي العالمي. دار طوى 2015
- كما يُغنّي بوب مارلي: دليلُ التائهينَ إلى نيويورك. دار طوى 2014
- يجلسُ عاريًا أمام سكايب. دار طوى 2013
- نهّام الخليج الأخضر. نادي المنطقة الشرقية الأدبي 2010

مُدوّنة نهر الإسبرسّو
alaliahmed.wordpress.com

الفهرس

مفتاح 5

انتقـــال (2011)

مُقدّمة 11

عزيز 15

الفصل الأوّل 17

تاريخ 19

1935 21

خفافيش 23

خائفة، خائفة، خائفة 25

مُطارَد 29

حكواتي 31

الفصل الثاني – «نادِني عَزيز وحَسب» 33

سألني كثيرون ألّا أنساهم 35

واعظٌ في كانساس دعاني بـ «رجُل العضلات» 36

أكرههما، أحبها 38

عندما تبعُدُ كثيرًا عن البيت، تمتزجُ الحقيقةُ بالخيال 40
رائعةٌ هي العودة للعائلة، لكنها تستنفدك بشكلٍ مُروّع 42
فَردٌ من القبيلة 43
مَضَت خَمسونَ عامًا منذُ ابتهَلتُ أو فكّرتُ بالعَرَبيّة 44
الفصل الثالث 47
غسق 49
ظامئ 50
عامر وآنا 52
أكواريوم دُبي مول 53
حَرب 54
الحَرق 56
صارم 59
عقار 61
ابتعاد 63
أينَ أنتَ الآن؟ 65
هل ستبقون على حُبّي عندما أموت؟ 67
غيرُ مُنتهٍ 69
الفصل الرّابع 71
حَي 73

لحظة 75
شاعرات «وينيبغ» الشابّات 77
ما الذي سوفَ يحدُث؟ 79
عصافيرُ الصّباح 81
أينَ كُنّا 83
حُبٌّ عائلي 84
الغروبُ في مَسقَط 86
شارع المتنبي 87
غموض 89
صمود 90
الفصل الخامس 93
رنين 95
شيشو وإخوانه للفواكه والخضروات 97
بصراحة 99
أمي تتبرّع بربطات عنقك 101
الحربُ حلبة مصارعة 103
راحة 104
يرى النّحلُ وجهَكِ وردةً غريبة 106
طولُ المَوجَة 107

أنتَ ومَن يؤثرك (2005)

ترفو وتدرُزُ، وتحيكُ الكروشيه «يوم الأم 1999م» 111
آخرُ سويعات أغسطس قبل حلول العام 2000م 114
دلو 116
ميلاد 118
ريّان 120
اليوم 121
مُقابلة، المملكة العربية السعودية 122
الضّوءُ الذي شَعّ صَوبَنَا الآن 124
موسيقى 126
غريبتي المثاليّة 128

وقـــود (1998)

كعكة الزواج 133
لأنّ المكتبات موجودة، نستطيع قولَ مثل هذه الأمور 136
حبيبي 138
قال لي طفلٌ مرّةً 141
الطفل نائم 145
النّاهضُ مُبكّرًا 146
مُختبئ 147

في انتظار إذن العبور 148
السّائق 150
يُقسمُ ابنُنَا أنّ جسدَه يحملُ 102 غالوناً من الماء 151

حقيبـةٌ حمـراء (1994)

العربيّة 155
أرضٌ مُقدّسة 157
الكلماتُ عندما نحتاجها 159
كيف يُبقي الفلسطينيون على الدفء؟ 161
عُقدة اللسان 163
العَيشُ مع الأخطاء 164
ما يُفتَرَضُ وقوعُهُ 165
أكتاف 166

قفاز أصفر (1986)

شوارع 169
جدوى الخيال 171
تعريف البياض 172
أُمُّ العَدَم 174
البَصَلة المُترحّلة 177
بجانب الأُم تيريزا 179

مطر 180
ما أجابَ به أعداءه 181

احتضانُ دولاب الموسيقى (1982)

إلى أخواتٍ فُقِدنَ ثُمّ عُثِرَ عليهن 185
أضواء النوافذ الأخرى 187
حيثُ يعيشُ الأطفال 189
الأُغنية 191
إعدادُ طبق 193
تزجيةُ اليوم 195
الكاميرا المسروقة 197
شُهرة 200

طُرُقٌ شتّى للصلاة (1980)

حاضرٌ في الذاكرة 205
سمك البلم 208
الحُلم 210
سيرةُ تلميذةٍ أمريكية 212
فَنُّ الاختفاء 215
صندوق الموسيقى 217
إلى محمد في الجبل 219
السّير على شارع «بلانكو» في منتصف الليل 223